الحياة الإنسانية الدنيوية

متى تبدأ ؟ ومتى تنتهي؟

بحث طبي ديني

بقلم

الدكتور محمد علي البار

دار القلم دمشق

الطبعة الثانية 1435هـ/ 2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

الحمد لله {**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** }[الملك :2]، والصلاة والسلام على الهادي البشير ، والسراج المنير ، وآله الطيبين ، وأصحابه أعلام الدين .

وبعد : فهذا بحث طبي ديني عن الحياة الانسانية الدنيوية : متى تبدأ؟ ومتى تنتهي ؟ وذلك يستدعي البحث في تكون الجنين ، ونفخ الروح فيه.

وبما أنني قد بحثت مراحل تكوين الجنين في عدة كتب سابقة أهمها (خلق الانسان بين الطب والقرآن) فقد ركزت القول هنا على موضوع نفخ الروح في الجنين ، ومتى يحدث ذلك ، بناء على ما ورد عن خير البرية صلى الله عليه وآله وسلم من أحاديث صحيحة أخرجها (الشيخان) ، وأولها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

" إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا ، فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح" .

وحديث حذيفة بن أسيد – الذي أخرجه مسلم في (صحيحه) – قال :

" إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها ، وخلق سمعها وبصرها ، وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء" .

وقد شرحت الحديثين الشريفين مستعينا بما قاله علماء الأمة ، وما توضحه أبحاث علم الأجنة الحديث ، وما في ذلك من إعجاز مبهر.

وتنبني على فهم هذه الاحاديث أحكام شرعية ، فصلها علماء الاسلام الاجلاء في موضوع الاجهاض . وقد اجمعوا على حرمة الاجهاض بعد نفخ الروح ، وهو مئة وعشرون يوما منذ التلقيح (أو ما يساوي (134) يوما منذ آخر حيضة حاضتها المرأة)

ومع ذلك فقد أباحوا الإجهاض ولو بعد نفخ الروح إذا كان استمرار الحمل سيؤدي الى وفاة الحامل ، وقالوا : لا يضحى بحياتها من أجله ، فهي أصله . وهذا على أية حال أصبح أمر شديد

الندرة في عالم الطب اليوم ، إذ يمكن في الغالب إنقاذ الأم ، واجراء عملية قيصرية لتوليد الجنين قبل موعده ، وفي الغالب يتم انقاذ الأم ووليدها.

وقد تعرضتُ لموقف الفقهاء الأجلاء من المولود الذي لم يستهل صارخا ، والذين لم يعتبروا حياته حتى يستهل ، أو تعلم منه أمارات الحياة بيقين ، وشرحت ذلك بما فيه الكفاية . وكيف أن الطب قد تقدم عما كان عليه العهد في تلك الأزمنة الغابرة ، حيث كان يحكم على عدد كبير من المواليد بالموت ، لأنهم لم يبدؤوا حياتهم بالصراخ . وأن عدد كبيرا من هؤلاء – بل غالبيتهم الساحقة – يمكن انقاذهم بإذن الله بالاجراءات الطبية البسيطة أو المعقدة ، حسبما تقتضيه الحالة .

ثم تعرضت لمفاهيم القلب والصدر ، والروح ، والنفس ، لارتباطها بمفهوم الحياة بدءا وانتهاء ، وشرحت ذلك من الناحيتين الدينية والطبية شرحا وافيا ، دون إطناب ، وبينت أوجه الاتصال والاختلاف ، واعتمدت في ذلك بصورة خاصة على الامام الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) حيث استطاع ان يوضح بجلاء هذه المفاهيم ، بحيث يمكن الجمع بين ما يقوله الطب وعلم التشريح ، وبين ما يقوله العلماء الاجلاء في هذه النقاط .

وتعرضت بعد ذلك لمفهوم الموت ، ومفهوم موت الدماغ ، والأدلة عليه ، ومقارنته بما كان يفهمه الفقهاء من حركة المذبوح ، حتى ينجلي الران والشك عن هذا الموضوع الذي اكتنفته الظنون ، وأساءت فهمه الفهوم.

ولم يكن غرضي أبدا التعرض لعالم الذر ووجود الروح في عالم الغيب ، قال تعالى :{ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**} [الاعراف: 172] .

ولم يكن هدفي التعرض لعالم البرزخ ، وما يحدث للأرواح فيها من نعيم أو عذاب ، ومن صلات بعالم الأحياء .

كذلك لم يكن غرضي التعرض للحياة الخالدة الأبدية في جنات النعيم ، أو في لجات الجحيم ، بعد البعث والنشور ، ودخول الأرواح الى الأجساد مرة أخرى {**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**} [التكوير : 7] ، قالوا : إذا زوجت الأجساد بالأرواح ، وعادت فيها.

فذلك كله خارج عن هدفي وغرضي ، لهذا قصرت العنوان على الحياة الإنسانية الدنيوية : متى تبدأ؟ .. ومتى تنتهي؟ . وهو موضوع شائك بما فيه الكفاية ، فاقتصرت عليه لارتباطه بقضايا طبية هامة .. والله ولي التوفيق .

جدة 8محرم 1424هـ الدكتور محمد علي البار

11 مارس 2002م

متى تبدأ الحياة الإنسانية الدنيوية ؟

يحدثنا القرآن الكريم عن بداية الحياة الانسانية ، كما يحدثنا عن نهايتها في صور متتابعة أخاذة ، تبهر العقل ، وتثير في النفس الإعجاب والتعظيم .

قال تعالى {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** }[الحج : 5-6]

وفي آية واحدة استعرض المولى سبحانه وتعالى أطوار خلق الانسان من الطين والتراب وخلق آدم ، ثم وصف الحق سبحانه وتعالى مراحل تكون الجنين ، من النطفة الى العلقة ، فالمضغة ، وما هو مخلق منها ، وما هو غير مخلق وحدوث السقط (الاجهاض) ، ونزول الجنين قبل تمامه أو انتهائه الى خروجه طفلا ، ثم يمر بمراحل العمر حتى يبلغ أشده وقوته وعنفوانه .

ثم يسير الخط الى تمامه ببلوغ الاجل في أي لحظة يقدرها المولى سبحانه وتعالى ، أو الاستمرار في الحياة حتى يصل الى أرذل العمر ، قال تعالى :{ **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**}[يس: 68] . وهناك يحدث الخرف أو ما يعرف اليوم بمرض (الزهايمر) فيفقد الانسان ذاكرته حتى لا يعرف أقرب المقربين إليه {**لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ**}[الحج : 5].

ثم تنتقل اللآية الكريمة الى صورة أخرى للحياة ، فإذا الأرض الهامدة الميتة تهتز وتربو ، وتضطرب بالحياة من أنواع النبات ، وغيرها من المخلوقات التي لا نراها ، بنزول المطر والحياء عليها ، فتنبت من كل زوج بهيج ، مسبحة للخالق الذي أبرز الحياة فيها .

وهي صورة لا تدع للقارء مجالا إلا ان ينبهر ويؤمن بهذه القدرة الخلاقة المبدعة ، التي تبدأ الخلق ثم تعيده ، قال تعالى :{ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}[الحج : 6] .

ونرى الصورة ذاتها من زاوية مختلفة نسبيا ، تعرضها آيات كريمات في سورة (المؤمنون12-16) قال تعالى :ل{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**}[المؤمنون 12-16].

ويقول سبحانه وتعالى :{ **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** }[نوح:13-14].وقد وصفها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : "معناه من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، ثم يكون عظاما ، ثم يكسوها اللحم ، ثم ينشؤها الله خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين " . وهو ما اتفق عليه

المفسرون انه نفخ الروح . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه (جامع العلوم والحكم) من أن قوما كانوا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : " ان قوما زعموا ان العزل هو الموءودة الصغرى ؟!

فقال علي رضي الله عنه : لا تكون موءودة حتى تمرّ على التارات السبع : تكون سلالة من طين ، ثم تكون نطفة ثم تكون علقة ، ثم تكون مضغة ، ثم تكون عظاما ، ثم تكون لحما ، ثم تكون خلقا آخر " أي بعد نفخ الروح فيها .

والتارات السبع (الأطوار) هي : 1- سلالة من طين 2- النطفة. 3- العلقة . 4- المضغة. 5- العظام. 6- لحم يكسو العظام . 7- خلق آخر ، وفيه نفخ الروح والمرحلة الإنسانية[1].

ويدل عليه حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي أخرجه الشيخان البخاري ومسلم .قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقيّ أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح "[2].

وهناك اختلاف طفيف في روايات البخاري المختلفة ، ورواية مسلم ، وهي لا تغيّر المعنى ، ولا تزيد فيه ، ولا تنقص منه .

وذكر الامام النووي في (الأربعين النووية) الحديث بلفظ : " إن أحدم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح " . وليس في (الصحيحين) لفظ (نطفة) وانما هي مدرجة .

قال الامام ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري شرح صحيح البخاري)[3] : " ووقع عند أبي عوانة (في صحيحه) من رواية وهب بن جرير عن شعبة مثل رواية آدم ، ولكن زاد (نطفة)بين قول (أحدكم) وبين قوله (أربعين) ، فيبينأن الذي يجمع هو النطفة ، والمراد بالنطفة المني ، واصله الماء القليل " .

وقد ناقشت مراحل نمو الجنين بتفصيل واف في كتبي (خلق الإنسان بين الطب والقرآن)[4]، و (الوجيز في علم الأجنة القرآني)[5] ، و(التارات السبع من الطين إلى الجنين)[6] ، و(الجنين المشوه والأمراض الوراثية)[7].

وما يهمنا هاهنا هو مرحلة نفخ الروح ، لأنها هي بداية الحياة الإنسانية ، وأما قبلها فهي حياة نباتية ، أو حياة حيوانية في طريقها إلى الحياة الانسانية ، وهذا المفهوم ليس موجودا عند الأمم الأخرى .

---

[1] جامع العلوم والحكم : 156/1،ط. مؤسسة الرسالة .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء ، وكتاب القدر ، وكتاب التوحيد ، وكتاب بدء الخلق ، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر.

[3] فتح الباري : 477/11-486، الطبعة السلفية .

[4] الدار السعودية جدة ، وقد صدرت طبعته الثانية عشرة .

[5] الدار السعودية جدة.

[6] الندوة العالمية للشباب الاسلامي.

[7] دار القلم دمشق ، ودار المنارة جدة .

فالكاثوليك من النصارى على سبيل المثال يعتقدون ان الحياة الإنسانية تبدأ منذ لحظة تلقيح البيضة بالحيوان المنوي ، وتكوين الزيجوت (Zygote) (النطفة الأمشاج أو اللقيحة).

بينما يعتقد اليهود والبروتستانت من النصارى أن هناك مراحل تطويرية قبل ان يتحول الجنين إلى انسان (Persona) ولكنهم لا يستطيعون تحديد هذه المراحل ، ولا تحديد زمنها[1] ، ويدعون ذلك : النظرة التطورية التنموية لقيمة الجنين ، حيث إن حرمة الجنين تزداد تدريجيا مع تقدم الحمل ، وتزايد نمو الجنين ، وتبلغ أقصى مداها بالاحساس والادراك والوعي ، وهو الذي يظهر في الجنين في أواخر مدة الحمل دون تحديد لهذه المدة أو زمنها .

وقد حدد الحديث الذي رواه ابن مسعود الزمن الذي يدخل فيه الملك ، ويفتح فيه الروح ، وهو بعد مرور فترة النطفة والعلقة والمضغة ، وحدوث التخليق ، وقد اتفق جمهور العلماء بناء على فهمهم لحديث ابن مسعود رضي الله عنه على انها تقع بعد مئة وعشرين يوما من حدوث التلقيح .

ولا ريب أن الجنين قبل نفخ الروح حيّ ، ولكن حياته ليست الحياة الانسانية ، ويشرح ذلك ابن القيم في كتابه (التبيان في أقسام القرآن)[2] ، وكذلك في كتابه (طريق الهجرتين وسفر السعادتين) بقوله : "فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟

" قيل : كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالارادة ، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيّته وإرادته الى حركة نموه واغتذائه " .

ويقول الامام ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري شرح صحيح البخاري) : " ولا حاجة له (أي الجنين) حينئذ إلى حس ولا حركة إرادية ، لأنه حينئذ بمنزلة النبات ، وإنما يكون له قوة الحس والارادة عند تعلق النفس (أي الروح)به"[3] .

والغريب حقا ان يرجع هؤلاء العلماء الأفذاذ علامة نفخ الروح الى وجود الحس والحركة الارادية ، وهو أمر لا يحدث في الجنين الا بعد نمو الدماغ ، وبالذات المخ (Cerebrum) بحيث تتحكم المناطق المخية العليا في الجهاز العصبي . فقد اكتشف البروفسور جوليوس كورين (Julios Koren) استاذ الامراض العصبية في جامعة نيويورك بعد تشريح العديد من الأجنة المسقطة في مراحل مختلفة من أعمارها أن المناطق العليا من المخ (Cerebrd Cortex) والتي تتحكم فيما تحتها من المراكز ، ولا يبدأ الاتصال والتشابك (Synapses) وارسال الاشارات إلا بعد مرور (120) يوما منذ التلقيح ، أو (134) يوما منذ أخر حيضة حاضتها المرأة قبل بداية الحمل (وهو حساب أطباء التوليد لمدة الحمل) ، وذلك يساوي (19) اسبوعا ويوما واحدا ، أي أن الجنين قد دخل في بداية الاسبوع العشرين بحساب أطباء التوليد ، وفي تلك المرحلة يحس الجنين بالألم إذا وخز بإبرة ، وتبدأ الحركات الارادية التي تتحكم فيها المناطق العليا من قشرة الدماغ . وقد اعلن عن ذلك في

---

[1] Sacks J: Ethical Issues at the Start of Life. Clinical Medicine (JRCP)2001,1(S):401-406.
مجلة الكلية الملكية للأطباء بلندن أكتوبر 2001 ، ص401-406.

[2] ابن القيم : التبيان في أقسام القرآن ص255

[3] فتح الباري ، كتاب القدر :482/11.

(مؤتمر زرع الاعضاء : القضايا الأخلاقية والقانونية ، نظرة عالمية) المنعقد في مدينة (أوتوا – بكندا) في عام 20-24 اغسطس – آب 1989م[1].

وهذا الاكتشاف الحديث مذهل ويوضح إعجاز حديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في نفخ الروح ، وتكوين الجهاز العصبي .

وهناك حديث آخر أخرجه الامام مسلم في (صحيحه) في كتاب القدر ، وهو حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه ، يرفعه الى رسول الله صلى اله عليه وآله وسلم قال : " إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها ، وعظامها ، ثم قال : يارب أذكر أم انثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ".

وفي رواية أخرى أخرجه مسلم أيضا عن حذيفة قال : " يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يارب أشقيّ أم سعيد ؟ فيكتبان . فيقول : أي ربِّ ذكر أم أنثى ؟ فيكتبان ؟ .

ونحن نعلم اليوم من علمالأجنة أن مرحلة تكون الأعضاء (Organogenesis) تتم فيما بين الأسبوع الرابع والاسبوع الثامن منذ بدء الحمل (من التلقيح) . وأن قمة عملية تكوين الاعضاء تكون في الاسبوع السادس ، حيث يشهد هذا الاسبوع زخما في تكوين الاعضاء ، وتحويل الغدة التناسلية غير المتمايزة (Undifferentiated Gonad) الى خصية أو مبيض ، فإذا تحددت الغدة التناسلية ، فإن مسار تكون الأجهزة التناسلية الداخلية يحدد بناء على ذلك .

وقد أوضح علماء الأجنة بالصور لأنواع الأجنة المسقطة أن الجنين في الاسبوع السادس وما قبله لا تتميز فيه الغدة التناسلية ، بينما تتميز الغدة التناسلية بوضوح منذ الاسبوع السابع من الحمل (يحسب من لحظة التلقيح)[2] .

وعند بلوغ الجنين (42) يوما او ما حولها ، يتكون فيه جذع الدماغ ، ويبدأ في التحكم في المناطق الاسفل منه (أي النخاع الشوكي) . وقد سجل العلماء نشاطا كهربائيا لجذع الدماغ في هذه الفترة .

وجاء في كتاب (التكاثر الانساني) (Human Reproduction)[3]: في الاسبوع السادس تبدأ الأفعال المنعكسة (القوس المنعكس Reflex arc) في العمل ، وذلك في منطقة الفم وما حولها بحيث تصبح حساسة للمس ، وفي الاسبوع السابع (أي بعد اليوم الثاني والأربعين) يبدأ النخاع المستطيل في التحكم في النخاع الشوكي ... وبينما نرى الأجزاء المتعلقة بتنظيم الحركة والتوازن الموجودة في المخيخ تنمو في مرحلة متأخرة جدا ، ولا يكتمل نموها الا بعد الولادة ، نجد ان المراكز الاساسية للحياة تظهر في الاسبوع السادس .

---

1 Koren J: Symposium on Ethics of Organ Transplantation Ottawa, Canada, Aug20-24,1989. Book of Abstracts.

2 نقلت ذلك في كتابي (خلق الانسان بين الطب والقرآن) ، الدار السعودية ، الطبعة 12 ، ص458 ، وكتاب (الجنين المشوه والامراض الوراثية) ، دار القلم دمشق ، دار المنارة جدة ، ص 386 مع صورها .

3 Page, Ville C, Ville D: Human Reproduction, 3'd edition 1981, Saunders Co. PP 269-271

وفي الاسبوع السابع يمكن تسجيل نشاط كهربائي للدماغ في هذه المنطقة .

وفي هذا المستوى يبدأ منذ الاسبوع السابع عمل جذع الدماغ في صورته الأولى البسيطة ، ولكن لا يوجد إحساس لأن الاحساس مرتبط بتكون المناطق المخية العليا الموجودة في قشر المخ[1] (Cerebral Cortex) ، وتتحكم مناطق جذع الدماغ في التنفس ، والدورة الدموية ، والنوم ، واليقظة ، والمراكز الحيوية الأساسية ، وهذه تبدأ في الظهور بعد الأربعين ، أي منذ الأسبوع السابع للحمل (42-49 يوما) .

وقد ذكر (ابن سينا) في لكتابه (الشفا) كتاب النفس)[2] : أن القوى النفسانية منقسمة الى ثلاثة أقسام :

1 - **النفس النباتية :** وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تتولد ونغتذي ، أي أن فيها القدرة على الاغتذاء والنمو والتكاثر .

2 - **النفس الحيوانية :** وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تدرك الجزئيات وتتحرك ، أي أن لها القدرة على الحركة .

3 - **النفس الانسانية :** وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تفعل الأفاعيل الكائنة (أي الأفعال الإرادية) بالاختيار الفكري ، والاستنباط بالرأي ، ومن جهة ما تدرك الجزئيات والامور الكلية .

وذكر للنفس النباتية ثلاث قوى هي : الغاذية (أي التي تغذي الجسم) والمنمية (هي التي تنميه) ، والمولدة .

وللنفس الحيوانية قوتان : محركة ومدركة ، واتفق معه في ذلك وأيده كثير من علماء المسلمين ، ومنهم الفخر الرازي في كتابه (المباحث المشرقية)[3].

والخلاصة : أن علماء الاسلام قاطبة فرقوا تفريقا واضحا بين الحياة الموجودة في الجنين في مراحله المبكرة (قبل الاربعين) ، وبين ما يحدث عند بلوغه الأربعين من تكون الأعضاء ، ووجود بعض الحركات الانعكاسية ، ثم بعد ذلك – عند تمام بلوغه مئة وعشرين يوما – عندما تنفخ فيه الروح ، ويكتمل نموه ، وتظهر الحركات الارادية ، ويظهر الاحساس ، وتتكون المناطق المخية العليا ، التي بواسطتها تعمل الروح بطريقة لا نعلمها ، ولكن تظهر قوى الادراك ، والفهم ، والذاكرة ، وتتم التشابكات بين هذه المناطق العيا ، وما تحتها من مناطق الجهاز العصبي ، حتى إنها لتتحكم في أخمص القدم ، واصابع اليد والقدم ، وكل منطقة من مناطق الجسم .

---

[1] الدماغ (Brain): يشمل فصي المخ ، وهما مثل نصفي الكرة ، وبكل فص منهما مراكز هامة عديدة للسمع والبصر والاحساس والافعال الارادية ، والمناطق التي يبدو ان فيها التفكير والذاكرة ، وهي كلها مراكز هامة ، تعمل بواسطتها الروح ، التي لا ندرك من كنهها شيئا . كما انها تشمل الدماغ المتوسط شاملة فخذي المخ والاجسام التوأمية الأربعة ، والقناة المخية المائية ، ومجموعة من الأنوية الهامة . ويشمل أيضا الدماغ المؤخري المكون من القنطرة (Pons) والنخاع المستطيل (Medulla) والمخيخ (Cerebellum) .

[2] ابن سينا ، كتاب الشفاء (كتاب النفس) تحقيق جورج قنواتي وسعيد زايد ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، ص10-37.

[3] المباحث المشرقية : 2/227-238.

ولهذا كله اختلفت درجة الإثم في الاجهاض حسب مرحلة الحمل . يقول الامام الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) : " وليس هذا (أي العزل) كالاجهاض والوأد ، لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، واول مراتب الوجود ان تقع النطفة في الرحم ، وتختلط بماء المرأة ، وتستعد لقبول الحياة ، وافساد ذلك جناية ، فإن صارت نطفة كانت الجناية أفحش ، وإن نفخ فيه الروح ، واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشا ، ومنتهى التفاحش في الجناية هي بعد الانفصال حيا"[1] .

وقد استدل الفقهاء الأجلاء على تحريم اسقاط الجنين في مراحله الأولى بقياسه على كسر بيض الحرم بالنسبة للمحرم ، فمن كسر بيض الحرم أو أفسده فعليه إثم ، وعليه أيضا جزاء كسره .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أتى ببيض نعام ، وهومحرم ، فقال : " إنا قوم حرم ، فأطعموه أهل الحل"[2] .

فإذا حرم تناول أو افساد بيض الحرم ، باعتبار مآله وما سيصير اليه ، فكذلك يحرم قتل الجنين الانساني ، ولو كان في مراحله الاولى ، إلا اذا كان هناك سبب من مرض أو تشوه للجنين ، كما أوضحته الفتاوى العديدة الصادرة من أصحاب الفضيلة العلماء والمجامع الفقهية .

ولكن قتل الجنين قبل الاربعين أقل دون ريب في الاثم من قتله بعدها ، وقتله بعد مئة وعشرين يوما يساوي من الاثم قتل انسان ، ولولا أن الفقهاء لم يكونوا قادرين على معرفة حياة الجنين في الرحم والتيقن منها بعد المئة والعشرين يوما لقالوا مثل ما قال ابن حزم في (المحلى) بوجوب القود (القصاص)[3] حيث قال : " فما تقولون فيمن تعمدت قتل جنينها ، وقد تجاوزت مئة وعشرين ليلة بيقين فقتلته ؟ أو تعمد أجنبي قتل جنينها في بطنها فقتله ؟

فقولنا : إن القود واجب في ذلك ولا بد ، ولا غرة في ذلك حينئذ ، إلا ان يعفى عنه ، فتجب الغرة فقط لأنها دية" .

وقد أجمع الفقهاء على حرمة قتل الجنين بعد نفخ الروح فيه ، وأباح المتأخرون قتله لانقاذ حياة الأم ، لأنها أصله ، فلا يضحى بها لأجله . وممن قال بذلك شيخ الازهر محمود شلتوت ، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي والدكتور الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ، وفتوى المجمع الفقهي لرابطة العالم الاسلامي : القرار الرابع الدور (125) في 15-22 رجب 1410هـ الموافق 10-17 فبراير 1990م ونصه :

" اذا كان الحمل قد بلغ مئة وعشرين يوما لا يجوز اسقاطه ، ولو كان التشخيص الطبي يفيد أنه مشوه الخلقة ، إلا اذا اثبت بتقرير لجنة طبية من الاطباء الثقات المختصين ان بقاء الحمل فيه خطر مؤكد على حياة الام ، فعندئذ يجوز اسقاطه ، سواء كان مشوها أم لا ، دفعا لأعظم الضررين .

---

[1] إحياء علوم الدين : 65/2 .
[2] نيل الأوطار ، للشوكاني : 20/5.
[3] المحلى ، لابن حزم : 31/11 .

" قبل مرور مئة وعشرين يوما على الحمل ، إذا ثبت وتأكد بتقرير لجنة طبية من الأطباء المختصين الثقات ، وبناء على الفحوص الفنية بالأجهزة والوسائل المختبرية أن الجنين مشوه تشويها خطيرا غير قابل للعلاج ، وأنه إذا بقي وولد في موعده ستكون حياته سيئة ، وآلاما عليه وعلى أهله ، فعندئذ يجوز اسقاطه بناء على طلب الوالدين . والمجلس إذ يقرر ذلك يوصي الأطباء والوالدين بتقوى الله ، والتثبيت في هذا الامر ، والله ولي التوفيق"[1]

[1] ناقشت موضوع الاجهاض في كتاب (مشكلة الاجهاض) وكتاب (سياسة ووسائل تحديد النسل في الماضي والحاضر) وكتاب (الجنين المشوه) وآخرها في كتاب (الخلايا الجذعية والقضايا الأخلاقية والفقهية) ومن أراد المزيد فليرجع اليها ، أو الى الكتب الكثيرة والمؤتمرات العديدة حول الاجهاض ، ومنها ندوات المنظمة الاسلامية للعلوم الطبيعية في الكويت ، وكتب العديد من الباحثين والفقهاء الاجلاء ، ورسائل الماجستير والدكتوراه .

معاني القلب

لكي نوضح موضوع بداية الحياة ونهايتها لا بد أولا أن نوضح مفاهيم ارتبطت بها ، وهي : القلب والصدر والروح والنفس . وسأنقلها ها هنا من كتابي (موت القلب أو موت الدماغ).

القلب :

قال الامام الغزالي [1] في كتاب عجائب القلب من كتاب (احياء علوم الدين) : " وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الانسان ، ويعرف حقيقة الاشياء .. وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر ، لان بين تلك اللطيفة (الربانية) وبين جسم القلب علاقة خاصة " .

والواقع ان كل ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة عن القلب والصدر لا يراد به القلب العضلي الصنوبري الشكل ، المودع في القفص الصدري[2] ..

وكذلك لفظ الصدر لا يراد به هذا القفص الصدري ، المكون من الاضلاع ، والمحدود من أعلى بأسفل الرقبة ، ومن أسفل بالحجاب الحاجز ، ولكن يراد به الصدر المعنوي الذي سنشرحه بإذن الله في موضعه[3].

فالقلب في القرآن والسنة هو القلب المعنوي ، ما عدا بعض آيات أو أحاديث أشارت الى القلب العضلي ، وإن كانت في مقاصدها لا تشير الا الى القلب المعنوي .

ومثال ما جاء في القلب المعنوي من القرآن الكريمقوله تعالى : {**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**}[الرعد:28]

، قوله تعالى : {**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** }[الحج : 46]

وقوله عز من قائل : {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**}[محمد : 24]

وقوله تعالى : {**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا**}[الفتح :4]

وقوله سبحانه وتعالى :{ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**}[الحديد:16]

وقوله تعالى : {**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** }[الانفال:24]

وقوله : {**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**}[الأحزاب:5]

وقوله تعالى :{ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** }[الشعراء :89]

وقوله :{ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**}[التغابن:11]

وقوله :{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** }[ق : 37]، قال القرطبي في تفسيره : {لمن كان له قلب} : لمن كان له عقل يتدبر به ، فكنى بالقلب عن العقل.

---

[1] هو الامام حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أحد أذكياء الدنيا ، برع في علوم كثيرة ، أشهر كتبه (احياء علوم الدين) توفي بطوس سنة 505هـ.

[2] جاء في مختار الصحاح : (القلب) : الفؤاد ، العقل ، اللب ، وفي لسان العرب : (القلب) : الفؤاد ، اللب ، خالص الشيء ومحضه .

[3] انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

وقوله تعالى :{ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**}[الحجرات : 7]

وقد وصف الحق تعالى قلوب الكافرين والمنافقين وأمراضها ووصف (الران) الذي يغطي القلب ، ، و(الأكنة) التي تمنع القلب عن الهدى ، ووصف القلوب القاسية التي هي كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة ، ووصف (الطبع) الذي يطبع على القلوب، فلا ترى بصيصا من نور ، ووصف قلوب المنافقين وما فيها من مرض . قال تعالى : {**كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**}[غافر : 35]

وقال تعالى : {**كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**}[المطففين : 14]

وقال تعالى : {**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ**}[الانعام : 25]

وقال : {**وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**}[الاعراف : 100]

وقال : {**فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ** }[الزمر : 22]

وقال عز من قائل مخاطبا اليهود : {**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ**}[البقرة :74]

وقال عن اليهود : {**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ**}[البقرة :88]

وقال عن الكافرين : {**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ**}[البقرة :7]

وقال سبحانه يصف المنافقين : {**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ**}[البقرة :10]

وقال سبحانه وتعالى : {**فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**}[الأحزاب :32]

وقال سبحانه وتعالى :{ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**}[الأحزاب :60]

وقال تعالى :{ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ**}[محمد : 29]

وأمراض القلب المعنوي كثيرة أهمها مرضان : الشبهة ، والشهوة.

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القلوب فقال : " القلوب أربعة :

قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن .

وقلب أسود منكوس ، فذلك قلب الكافر .

وقلب أغلف مربوط على غلافه ، فذلك قلب المنافق .

وقلب مصفح ، فيه إيمان ونفاق ،فمثل الايمان فيه كمثل البقلةيمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبن عليه حكم له بها"[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : " لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء "[2] .

وقيل : يا رسول الله ! من خير الناس ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : " كل مؤمن مخموم القلب " .

---

[1] أخرجه الامام أحمد في مسنده : 17/13 ، والطبراني في الصغير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وذكره الامام الغزالي في الإحياء : 12/3 بصيغة مقاربة .

[2] اخرجه أحمد في مسنده : 353/2 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فقيل : وما مخموم القلب ؟

قال : " هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر "[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : " القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيف يشاء "، وفي لفظ: " إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه " [2].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول : " يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك " [3]

وفي رواية مسلم : " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك " .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : " مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا "[4]

وقد جاء ذكر الفؤاد في القرآن والسنة – وهو بمعنى القلب – قال تعالى : {**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** }[الاسراء : 36]

وقال تعالى : {**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ** }[الانعام : 110]

وهذه كلها لا تحتمل سوى القلب المعنوي ، الذي وصفه الامام الغزالي بأنه اللطيفة الربانية الروحانية ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان ، وهو (أي القلب المعنوي) المدرك العالم العارف عن الانسان . وهو المخاطب والمعاقب ، والمعاتب والمطالب .

وهناك بعض الآيات التي تشير الى القلب العضلي المادي ، وإن كان القصد ينصرف الى القلب المعنوي كقوله سبحانه وتعالى : {**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ۚ } [الاحزاب : 4]

وقوله تعالى : {**وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** }[الاحزاب : 10]

وقوله تعالى :{ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** }[الحج : 46]

ففي قوله تعالى :{ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ۚ }[الاحزاب : 4] ، قال ابن كثير[5] في تفسيره : "إنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : (انت علي كظهر أمي) أما له كذلك لا يصير الدعي ولدا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنا له ، فقال : { **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** } .

ثم حكى الاقوال الاخرى ، حيث كان رجل من قريش يزعم ان له قلبين : يعقل بكل واحد منهما كعقل محمد فكذبه الله تعالى .

كما ذكر قول المنافقين في النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين قالوا : ألا تروا إلى محمد له قلبان ، قلب معكم وقلب معهم ، فأنزل الله تكذيبهم بقوله : { **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** } " .

---

[1] أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر ، وقال عنه الزين العراقي : وأسناده صحيح .

[2] اخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم .

[3] أخرجه الترمذي والحاكم .

[4] أخرجه أحمد والحاكم

[5] هو اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي الدمشقي الحافظ الفقيه المفسر المؤرخ توفي بدمشق سنة 774هـ ودفن قرب شيخ الاسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

ومن الناحية الطبية لم يوجد شخص له قلبان ، رغم تشريح مئات الآلاف من الجثث على مدى السنين المتطاولة ، ورغم كثرة العيوب الخلقية ، التي توجد في الانسان ، إلا أن أحدا لم يصف شخصا أن له قلبين طبيعيين ، إذ وصفت حالات طبية يضع فيها الجراح قلبا ثانيا (صناعيا أو مزروعا) بجانب القلب الطبيعي المريض المدنف .

وأما قوله تعالى : { **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** }[الاحزاب : 10] ، فهو وصف لحالة الخوف ، ولا ينتقل القلب الى الحنجرة ، ولكن شدة ضربات القلب تجعل الخائف المرعوب يحس وكأن هذا القلب قد بلغ حنجرته من شدة خفقانه .

وأما قوله تعالى :{ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** }[الحج :46] ، ففي ذلك مظنة تحديد القلوب في الصدور ... ولا شك ان القلب المادي العضلي موجود في الصدور .

وأما القلب المعنوي الذي يصيبه النور أو العمى ، هو خاصية الانسان ، وليس هو القلب العضلي المادي ، وإن كان له نوع تعلق به لا ندرك أبعاده[1].

قال الامام الغزالي في (الاحياء) في كتاب عجائب القلب : " وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الاشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر ، لان بين تلك اللطيفة وبين جسم الانسان علاقة خاصة " .

ومن الاحاديث التي ذكرت القلب العضلي بوضوع واشارت اليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح : " ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب "[2]

وفي هذا الحديث اعجاز طبي ، إذا ان أي مرض يصيب القلب يؤثر دون ريب على سائر الجسد ، فالقلب هو الذي يضخ الدم الفاسد (غير المؤكسد الى الرئتين) حيث يطرد ثاني أوكسيد الكربون .. ويتحد الاوكسجين بصبغة الدم الهيموجلوبين الموجودة في كرات الدم الحمراء ، ثم يعود الدم المنقّى (المؤكسد) من الرئتين الى البطين الايسر ، فيضخه عبر الأبهر (الأورطي) الى كل أجزاء الجسم .

فإن ضعفت هذه الدورة نتيجة لأي مرض يصيب القلب ، فإن الانسجة لا تجد حاجتها من الاوكسجين .. والاوكسجين يستخدم لاحراق السكريات والدهون لاطلاق الطاقة ، ولو لاه لتوقفت حركة الخلايا ، والانسجة وأدى ذلك الى موتها وهلاكها ..

ففساد هذه المضغة الموضوعة في الجانب الايسر من القفص الصدري يؤدي الى فساد الجسد كله .... وكذلك فساد القلب المعنوي يؤدي الى فساد الانسان كله .. وهذا في الواقع هو مقصد الحديث الشريف ، حيث ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المثل بالقلب العضلي المحسوس وأثره على الجسد ، ليوضح أثر القلب المعنوي ، الذي يدخله النور ، فيجعل الانسان خيرا ، أو ترين عليه الظلمات ، فتجعل الانسان شريرا . فالنور الذي يقذفه الله في القلب هو نور معنوي ، وهو من نور الله تعالى ينشرح له الصدر المعنوي .

وانشراح الصدر المعنوي يؤدي الى انشراح الصدر الحسي ، وضيق الصدر المعنوي يؤدي الى ضيق الصدر الحسي .

---

[1] قال ابن كثير 227/3 : أي ليس العمى عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لا تنفذ الى العبر ولا تدري ما الخبر . وذكر في قوله تعالى { **فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** }[الحج : 46] أي يعتبرون بها .

[2] أخرجه الشيخان .

وقال الامام الفخر الرازي من تفسيره الكبير[1] الفصل السادس في (الصدر) :

" أعلم انه يجيء والمراد منه القلب { **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ** }[الزمر :22] ، { **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** }[طه: 25] ، و{ **وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ** }[العاديات: 10] ، { **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**}[غافر : 19] .. وقد يجيء والمراد الفضاء الذي فيه الصدر { **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** }[الحج : 46] .

واختلف الناس في أن محل العقل هو القلب أو الدماغ ، وجمهور المتكلمين على أنه القلب " .

وفي هذه الآية الكريمة حديث واضح عن عمى القلب ، والقلب العضلي المادي ليست له خاصية الابصار فدل ذلك دون ريب على القلب المعنوي ، وبما ان القلب المعنوي له نوع تعلق بالقلب المادي ، فقد عبر عنه بالقلوب التي في الصدور .

[1] التفسير الكبير 45/22

الفصل الثالث ## معاني الصَّدر

ولفظ الصدر في القرآن والسنة[1] كذلك له معنيان :

الاول : هذا القفص الصدري المادي ، الذي توجد فيه الرئتان والقلب .

والثالني : هو الصدر المعنوي الذي يتلقى النور والايمان ، فينشرح او ينغمس في ظلمة الكفر ، فيضيق وينحرج .

قال الله تعالى : {**وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** }[النحل :106]

وقال :{ **كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ**}[الاعراف :2]

وقال تعالى : {**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ**}[هود :12]

وقال موسى عليه السلام يدعو ربه كما حكاه عنه المولى :{ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**}[طه :25]

وقال الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ممتنا عليه :{ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**}[الانشراح :1]

وقال تعالى :{ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ**}[الزمر :22]

وقال تعالى :{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ** } [يونس :57]

وقال تعالى : {**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ**}[العنكبوت : 49]

وقال تعالى : {**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**}[الأنعام : 125]

وقال سبحانه وتعالى يصف المؤمنين : {**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** }[الحشر : 9]

ووصفهم وهم في الجنة بقوله : {**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**}[الحجر :47]

وذكر رعب الكفار والمنافقين من المؤمنين فقال : {**لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ**}[الحشر :13]

فكل ما ورد في هذه الايات الكريمة يدل دلالة واضحة على الصدر المعنوي ، وليس المقصود قطعا الاضلاع والعضلات والحجاب الحاجز وما يحتويه القفص الصدري من اعضاء ، مثل القلب ، والرئتين ، وأوعية الدم الكبرى ، مثل : الأورطي ، والشريان الرئوي ، والوريدان الأجوفان العلوي والسفلي ، والاوردة الرئوية ، والغدد اللمفاوية ، والقناة الصدرية ، والمريء ... الخ .

قال الامام الفخر الرازي في تفسيره[2] : " واعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير القلب كالسراج " .

وقد جاء في (تفسير ابن كثير) عند قوله تعالى : {**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**}[الأنعام :125] ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن كيفية شرح الصدر فقال :" نور يقذف في القلب ، فينشرح وينفسح" .

قالو : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟.

قال : " الإنابة الى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت " .

---

[1] الصدر في اللغة : أعلى مقدم كل شيء أوله ، وكل ما واجهك من الشيء، وما أشرف من اعلاه ، أول الشيء (لسان العرب ، مختار الصحاح)

[2] التفسير الكبير : 40/22

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : " إذا دخل الايمان القلب انفسح له القلب وانشرح " .
والحديث واضح الدلالة في أن هذا الشرح للصدر إنما هو شرح معنوي وصدر معنوي ، وكذلك الضيق فهو ضيق معنوي لا مادي ، وان نتجت عنه آثار مادية كما سنوضحه .

قال ابن كثير في تفسيره : {**وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** }[الانعام : 125] ، قال : " الحرجة هي الشجرة ، تكون بين الأشجار ، ولا تصل اليها راعية ولا وحشية ولا شيء" .
وقال عمر رضي الله عنه : "كذلك المنافق لا يصل اليه شيء من الخير ".

وقال عطاء الخرساني[1] {ضيقا حرجا } أي ليس للخير فيه منفذ

وقال عبد الله بن المبارك[2] : { ضيقا حرجا } بلا إله إلا الله ، حتى لا يستطيع ان تدخل قلبه ، كأنما يصعّد في السماء من شدّة ذلك عليه .

وقال سعيد بن جبير[3] {ضيقا حرجا } لا يجد فيه مسلكا إلا صعودا .
وقال السدي[4]{ كأنما يصعّد في السماء } : من ضيق صدره .

ومعلوم ان هذه الأوصاف كلها معنوية ، ولكن لها أثر في الصدر المادي المحسوس ، وكل من له تجربة بالطب واتصال بالمرضى يدرك ان ضيق الصدر الذي يشكو منه المرضى على نوعين :
الأول – ضيق التنفس : الذي له سبب مادي واضح الناتج عن ضيق بالقصبات (الشعب) الهوائية ، وهو ما يعرف بالربو (Bronchial Asthma) ، أو نتيجة ارتشاح الماء من الدورة الدموية نتيجة هبوط القلب ، مما يسبب ارتشاح الرئة (Pulmonary Oedema) أو احتقانها (Pulmonary Congestion)
وهناك اسباب مادية أخرى مثل :
شلل العصب المعدي للحجاب الحاجز .
او وجود التهاب في الرئة ، أو التهاب في البلورا (ذات الجنب) ، أو وجود ماء أو صديد أو دم بها .
أو انثقاب أحد أسناخ الرئة ، فيخرج منها الهواء ، ويضغط على الرئة (Pneumo Thorax) .
أو مرض مزمن بالرئة ، نتيجة انتفاخ الاسناخ الرئوية (الحويصلات الهوائية) وتحطمها ، فيؤدي ذلك الى الأمفيزيما ، وربما كان هو ما يعبر عنه العرب بانتفاخ السحَر ، أو نتيجة إصابة القفص الصدري ، أو كسر في أحد الاضلاع ، أو التهاب في مفاصلها ، أو التهاب في عضلات الصدر .
والسمنة الزائدة التي تعطل حركة الحجاب الحاجز ، والقفص الصدري ، أو وجود استسقاء بالبطن .
أو حمل يضغط على الحجاب الحاجز ، فيعطل حركته ، أو التهاب بالكبد .. الى غير ذلك من الاسباب الطبية المعروفة لدى الاطباء . وكلها أسباب مادية بحتة لضيق الصدر وحرجه .

[1] هو عطاء بن مسلم الخرساني ، نزيل بيت المقدس (50-135 هـ) مفسر ، كان يغزو ويكثر التهجد من الليل .
[2] هو عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن (118-181 هـ) . الحافظ الامام ، شيخ الاسلام ، التاجر المجاهد ، صاحب التصانيف والرحلات .
[3] سعيد بن جبير تابعي جليل ، حبشي الاصل ، أشهر تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهم ، وكان أعلم أهل عصره ، قتله الحجاج ظلما سنة (195 هـ)
[4] السدي هو اسماعيل بن عبد الرحمن ، مفسر (ت 128هـ).

الثاني – ضيق التنفس وحرج الصدر الذي ليس له سبب مادي واضح من هذه الاسباب المذكورة ، وانما سببه حالة نفسية هي ما تعارف عليه الاطباء بتسميتها كآبة (Depression) وهي حالة كآبة وسوداوية تربن على الشخص ، فتجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .

وليس من النادر أن يخطئ الطبيب غير الماهر (بل وأحيانا الماهر) في تشخيص سبب ضيق الصدر ، فيظن أن حالة الكآبة المسببة لضيق الصدر حالة ربو ، وكثيرا ما كنا نرى وصفات طبية لمريض يعاني من الكآبة النفسية ، وقد أعطاه الطبيب أدوية لمعالجة الربو .

ومما يجعل الامر أشد صعوبة أن بعض حالات الربو (وهو ضيق القصبات الهوائية) ناتج عن الحالة النفسية للمريض .

وفي الآية الكريمة إعجاز اتضحت بعض أبعاده في العصر الحديث ، حيث علم أن الاوكسجين يقلّ في الطبقات العليا من الجو ، وكلما تصعّد الانسان في الجو كلما قلّ الاوكسجين الذي يتنفسه ، وبالتالي يسبب له ضيقا وحرجا في صدره .

وصدق الله الكريم حيث يقول : {**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ** }[الانعام : 125] .

ويعتبر نقص الاوكسجين (Hypoxia) من اهم اسباب ضيق الصدر وحرجه ، لان ذلك يؤثر على المراكز الحساسة في جذع الدماغ ، والمسؤولة عن التحكم في التنفس ، فيؤدي ذلك الى ضيق الصدر ...

وهذا يوضح مدى التشابك والترابط بين الدماغ والقلب والصدر .. كما يوضح نوعا من التعلق بين اللفظ المادي للقلب والصدر والمقصود المعنوي لهذه الألفاظ .

الفصل الرابع **معاني الروح**

{**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** }[الاسراء : 85].

ولا شك ان مبحث الروح من المسائل العويصة التي حار فيها العلماء ، والتبس الامر فيها على كثير من الفضلاء .

ولا بد لنا من مبحث الروح في هذا المقام ، لان الموت لا يتم الا بخروج الروح ، ومبحثنا عن الموت وعلاماته وتعريفه ،، فلا بد لنا إذن من بحث كلمة الروح ومعانيها وما تدل عليها .

لفظ الروح في القرآن الكريم :

وقد ورد لفظ الروح في القرآن الكريم علي عدة معان منها :

1 - أنه القرآن الكريم ، قال تعالى : {**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ**}[الشورى :52]
وقوله تعالى: {**يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ**}[النحل :2] ولقد سمي القرآن بالروح ، لانه حياة الارواح والقلوب والعقول .

2 - أنه ملك من الملائكة ، عظيم الخلق جدا وهو المراد بقوله تعالى : {**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا**}[النبأ38] .

3 - انه جبريل عليه السلام ، وهو المراد في قوله تعالى : {**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** (193) **عَلَىٰ قَلْبِكَ** }[الشعراء :193-194] ، ومن قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام :{ **فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** }[مريم :17]، وفي قوله : {**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا** }[القدر: 4].

4 - أنه الوحي الذي ينزل على الانبياء عليهم السلام قال تعالى :{ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** }[غافر : 15]،

5 - أنه الروح والريحان والاستراحة .

6 - أنه الروح الذي به حياة البدن ، قال تعالى :{ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**}[الاسراء : 85] ، أي ما هية الروح وكنهها ، لان ذلك مما لا يعلمه الا الله .

7 - أنه القوة والثبات والنصرة ، التي يؤيد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين ، قال تعالى :{ **أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**}[المجادلة :22].

8 - أنه المسيح ابن مريم ، قال تعالى :{ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**}[النساء :171]. وفي الحديث الشريف : " يقال لعيسى عليه السلام يا روح الله .."[1].

وهنا نقطة هامة لا بد من توضيحها ، لان كثيرا من عامة الناس يغلط فيها ، فيظن ان الروح التي في عيسى ... والروح التي نفخها الله في آدم عليهما السلام هي جزء من روح الله[2] ، وهو خطأ فاحش ، بل كفر صريح وقع فيه النصارى ، حيث زعموا أن المسيح ابن مريم هو ابن الله ، لانه من روحه بلا أب ، ومنهم من زعم

---

[1] أخرجه الشيخان

[2] قال تعالى : {**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** }[الحجر: 29]

ان المسيح هو الله ، قال تعالى : {**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**}[المائدة :73]، وهي بزعمهم : الله (الأب) وعيسى (الابن) والروح القدس . وقال تعالى :{ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**}[المائدة : 72].

ونسبة الروح الى الله كنسبة البيت والناقة والعبد والرسول ، فيقال : بيت الله (الكعبة) ، وناقة الله (ناقة صالح) ، وعبد الله ، ورسول الله .. وكلها إضافات إليه تقتضي التشريف والتكريم ، فالبيوت كلها بيوت الله ، والنوق كلها له ، والعبيد جميعا عبيده ، والخلق كلهم ملك يده ، فأضاف فرقة منهم اليه ، وسماهم حزب الله وعباد الله ، وسمى الفرقة الاخرى حزب الشيطان وعبيد ابليس والهوى ، وكلهم خلقه وعبيده .. إلا أن هذا الاصطفاء والاجتباء جعل الاضافة اليه .

وكما يقول الامام عبد الله العيدروس في كتابه (الدر والجوهر)[1]: " إذا وصل الذاكر الى عالم الروح بزر له نعت القدم بتنصيص التخصيص ومنشور التشريف من باب اضافة {**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**}[الحجر:29] الى ان يقول فنزّه القدم (أي الله) عن الحدث (اي المخلوق) ، وتنزّه القديم (أي الله جل جلاله) عن المحدث (أي المخلوق) ، وجلّت الأزلية عن الوصل والفصل ، إضافتك اليه اضافة مزيّة لا اضافة جزئيّة ، إضافتك اليه اضافة خصوصيّة ، لا اضافة بعضيّة ، اضافة قرب لا اضافة نسبة ، إضافة كرم لا اضافة قِدم ، هو منزّه عن كل إضافة وإن قال : {**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**}[الحجر : 29]".

ومقصودنا ها هنا من الحديث عن الروح هو الروح التي به حياة بدن الانسان ، وقد اختلف فيه العلماء اختلافا شديدا ، ولكنهم جميعا متفقون على ان الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة ، كما يقول الامام ابن القيم[2] في كتابه القيم (الروح *) :

" ولا خلاف بين المسلمين ان الارواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله ، خلقها وأنشأها ، وكونها واخترعها ، ثم اضافها الى نفسه ، كما أضاف اليه سائر خلقه " .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية[3] كما يحكي عنه ابن القيم : " روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة .

وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي[4] الامام المشهور الذي هو من أعلم اهل زمانه بالاجماع . وأبو محمد ابن قتيبة[5]، قال : وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارئ النسمة أي خالق الروح "

وقال ابن شاقلا[6] (يرد على من سأل : هل الروح مخلوقة أم غير مخلوقة ؟) : " وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب ان الروح من الاشياء المخلوقة " .

---

[1] الدر والجوهر ، ص 76 ، مطبوع مع كتاب (ايضاح اسرار علوم المقربين) ، ط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة 1352هـ=1933م

[2] محمد بن ابي بكر الزرعي الدمشقي ، أحد كبار علماء الاسلام وصاحب الكتب النافعة الماتعة ، وتلميذ ابن تيمية الاثير ، وناشر علمه ، توفي سنة 751هـ.

[3] أحمد بن عبد الحليم عبد السلام ، أبو العباس ، شيخ الاسلام الامام المجدد المجتهد، وصاحب التصانيف ، توفي سنة727هـ

[4] الحافظ الفقيه محمد بن نصر المروزي ، من مدينة مرو(Merv) في بلاد ما وراء النهر في تركمنستان (202-294هـ = 817-906م)

[5] عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، من الأئمة ، اشتهر بالادب ، توفي سنة 276هـ

[6] ابن شاقلا هو ابراهيم بن أحمد بن حمدان ، ابو اسحاق البزار (ت369هـ) في بغداد ، من كبار علماء الحنابلة .

وصنف الحافظ ابن منده[1] كتابا كبيرا في الرد على الفلاسفة الذين زعموا ان الروح غير مخلوقة .

حقيقة الروح التي بها حياة البدن :

وأما حقيقة الروح التي بها حياة البدن ، فقد اختلف فيها العلماء اختلافا شديدا ، قال الامام ابو الحسن الاشعري[2] في (مقالاته) : " اختلف الناس في الروح والنفس والحياة وهل الروح هي الحياة او غيرها ؟ وهل الروح جسم أم لا ؟ " .

ثم حكى أقوالا عديدة تبلغ العشرين ، فمنهم من قال : ان الروح جسم ، وهو (النظّام)[3] إمام المعتزلة ، وإنها هي النفس ، وزعم ان الروح حي بنفسه ، وأنكر ان تكون الحياة والقوة ، معنى غير الحي القوي .

وقال (الجبائي)[4] : " بأن الروح جسم ، وأنها غير الحياة " .

وقال جماعة : " ليس الروح شيئا أكثر من اعتدال الطبائع الاربع ، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة " .

وقال آخرون : " إن الروح هي الدم الصافي الخالص من الكدر " .

وقال قائلون : " الحياة هي الحرارة الغريزية " .

وكان الأصم لا يثبت للحياة والروح شيئا غير الجسد ويقول : " لست أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق ، الذي أراه وأشاهده" ، وهي نظرة مغرقة في المادية ، ولا تفترق عن النظريات الم ادية الملحدة من شيوعية وإلحادية علمانية في شيء .

وقال (أبو بكر الباقلاني)[5] : النفس هي النسيم (الهواء) الداخل والخارج بالتنفس ، والروح هي الحياة فقط وهي غير النفس .

وقال ابن حزم[6] : وذهب سائر أهل الاسلام والملل المقرّة بالمعاد الى النفس جسم طويل عريض عميق ، ذات مكان ، جثة متحيزة مصرّفة للجسد قال : وبهذا نقول ... ثم قال : والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد .

وزعم ابن حزم ان قوله هذا هو قول سائر أهل الاسلام والملل المقرّة بالمعاد ، وهو أمر مردود عليه .. فالخلاف فيه واضح لا شك فيه .

وذكر الامام ابن القيم في كتابه (الروح) بعد ذلك تقسيمات الامام الفخر الرازي[7] وتعريفاته للروح والنفس ، وماذا يقصد بكلمة انسان ، وهل هو الجسم فقط ؟ أم الجسم والروح ؟ أم الاخلاط الأربعة ؟ أم الدم ؟

---

[1] محمد بن اسحاق بن منده ، أبو عبد الله من كبار حفاظ الحديث (310-395هـ =922-1005م)

[2] ابو الحسن الاشعري هو علي بن اسماعيل (260-324هـ) من كبار الأئمة المتكلمين المجتهدين وإليه ينسب الأشاعرة.

[3] (النظام)هو ابراهيم بن سيار بن هانئ البصري ابو اسحاق ، المتوفى سنة 231هـ ، وللدكتور عبد الهادي أبو ريدة كتاب في سيرته وبيان مذهبه وآرائه .

[4] (الجبائي)محمد بن عبد الوهاب ، أبو علي ، من أئمة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره ، توفي سنة 235هـ .

[5] أبو بكر الباقلاني ، محمد بن الطيب قاضي أهل السنة ومتكلمهم ، انتهت اليه الرياسة في مذهب الاشاعرة ، وكان إماما في فنون كثيرة ، من أشهر كتبه (اعجاز القرآن) ، توفي سنة 403 هـ .

[6] علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد ، عالم الاندلس في عصره ، وأحد أئمة الاسلام ، وصاحب التأليف الفريدة توفي سنة 456 هـ .

[7] الامام الفخر الرازي محمد بن عمر ، الامام المفسر ، أو حد زومانه في المعقول والاصلين ، توفي سنة 606هـ وينتسب الى أبي بكر الصديق .

أم الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الايسر من القلب ، وينفذ في الشريانات الى سائر الاعضاء؟ أو أنه الروح الذي يصعد من القلب الى الدماغ ؟ أو أنه جزء لا يتجزأ من القلب ؟ أو أنه جسم نوراني علوي خفيف متحرك ينفذ في جوهر الاعضاء ، ويسري فيه سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم ؟ . فما دامت الاعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الاعضاء ، وأفادها هذه الاثار من الحس والحركة الارادية ، وإذا فسدت هذه الاعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن قبول تلك الاثار ، فارق الروح البدن ، وانفصل الى عالم الارواح .

ثم قال ابن القيم معلقا على ذلك : " وهذا (أي القول الاخير) هو القول الصواب في المسألة ، وهو الذي لا يصح غيره ، وكل الاقوال سواه باطلة ، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ثم ساق على ذلك أدلته التي بلغت ثمانية وتسعين دليلا ..

وخير من كتب في موضوع القلب والروح والنفس والعقل هو الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، حجة الاسلام في كتابه (.. شرح عجائب القلب) من كتاب (احياء علوم الدين) رغم وجازته واختصاره .

وقد تقدم قوله في القلب ، وأنه على معنيين .

أحدهما : القلب المادي ، الصنوبري الشكل ، المودع في الصدر ، الموجود لدى البهائم والانسان .

والثاني : اللطيفة الربانية ، التي هي حقيقة الانسان .. وهو (أي القلب المعنوي) المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب ، والمعاتب والمطالب .

أما (الروح) فقال فيه : " انه يطلق لعدة معان ، وما يتعلق منه بغرضه في الكتاب معنيان :

أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر اجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان انوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي الى جزء من البيت الا ويستنير به .
والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان ، والروح مثالها السراج . وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركة ... والاطباء اذا اطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف ، أنضجته حرارة القلب وليس شرحه في غرضنا ، إذا المتعلق به غرض الاطباء ، الذين يعالجون الابدان .

فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق الى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح ه ذا الروح اصلا " .

والمعنى الثاني للروح – كما يقول الامام الغزالي في (الاحياء) – " هو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان . وهو الذي شرحناه في احد معاني القلب ... وهو الذي أراده الله بقوله : **{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}**[الاسراء 85] . وهو أمر عجيب رباني ، تعجز أكثر العقول والافهام عن درك حقيقته " .

وقد صدق الامام الغزالي فإن العقول تحار وتدهش عن ادراك الروح على المعنى الثاني . ولذا كثر الاختلاف لدى العلماء في تفسيرلفظ الروح وبيان حقيقته ، حتى قال الامام الشوكاني[1] في تفسيره (فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية في علم التفسير) : إنها بلغت الى ثماني عشرة ومئة قول .. ثم عقب على ذلك بقوله : " فانظر الى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع " .

[1] محمد بن علي ، فقيه مجتهد ، من كبار علماء اليمن ، توفي سنة 1250هـ

وقد جاء في تفسير الامام الشوكاني في قوله تعالى :{ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**}[الاسراء :85] وقد اختلف الناس من المسؤول عنه ، فقيل : هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته . وبهذا قال أكثر المفسرين . قال الفرّاء[1] : " الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه ولم يعط علمه أحدا من عباده.."

وانتهى الامام الشوكاني في معنى قوله تعالى : {**الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**} الى الآتي : الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاشياء التي لم يعلم بها عباده ، فهي { **مِنْ أَمْرِ رَبِّي** } وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع .. وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له القيام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا ".

وقال الجنيد[2] : " إن الروح شيء استأثر الله تعالى بعلمه ، ولا يجوز لأحد البحث عنه أكثر من أنه موجود " .

وقال الشعراني[3] : " لم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكلم عن حقيقة الروح ، مع أنه سئل عنه ، فنمسك عن الحديث عنها أدبا " .

وقال الامام أحمد بن زين الحبشي[4] في شرح قصيدة الامام عبد الله الحداد : (لجيران لنا بالأبطحية) وقوله تعالى :{ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** } فالروح مضاف الى ياء النفس إضافة تشريف ، فهو حادث عن النفخ الرباني من غير حدوث في النافخ ، ولا تغيّر ولا تجزّؤ ولا انفصال ".

ثم قال : " وهذا الروح جوهر لطيف علوي حارت فيه العقول ، وليس هو البخار الساري في الجسم ، المنبعث فيه عن القلب اللحمي المحسوس المودع في الجانب الايسر من الصدر ، الذي يتصرف فيه الاطباء ، فإن هذا الروح ليس له كبير قدر عند علماء الاخرة أطباء القلوب العارفين بالله "

وخلاصة الامر ان ما ذهب اليه الامام الغزالي والامام احمد بن زين الحبشي في المسألة هو الحق ، فللروح كما للقلب معنيان :

فالمعنى الاول : يتعلق به غرض الاطباء ، وهو الذي تتحدد به الحياة والموت .

والمعنى الثاني : سر من الاسرار ، تحار أكثر العقول والافهام عن درك حقيقته ، كما يقول الامام الغزالي والامام احمد بن زين الحبشي . والواقع ان ما ذهب اليه الفخر الرازي وابن القيم في كتاب (الروح) : وانه هو القول الفصل فيه لا يعدوان يكون قول الاطباء (في تلك الازمنة) في الروح ، وهو لا يمثل الا جزءا يسيرا من الحقيقة اذ ان حقيقة الروح هي من عالم الغيب ، وعالم السر ، الذي قال الله فيه : { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** }[الاسراء : 85]

ويتضح لنا بذلك أن موقف بعض العلماء ، مثل الامام الشوكاني في (فتح القدير) والفرّاء وجعفر بن حرب[5] ، عندما قالوا لا ندري ما الروح ، واحتجوا بقوله تعالى : {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ**

---

[1] يحيى بن زياد الفرّاء ، إمام الكوفيين ، واعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب ، توفي سنة 207هـ .

[2] الجنيد بن محمد البغدادي ، من كبار الصوفية العلماء الملتزميين بالكتاب والسنة ، توفي سنة 279هـ

[3] عبد الوهاب بن أحمد الشعراني من كبار المتصوفين في مصر ، توفي سنة 973هـ .

[4] أحمد بن زين الحبشي من أهل حضرموت ، من العلماء المتصوفين ، توفي سنة 1145هـ . أما الامام عبد الله بن علوي الحسيني الحضرمي المعروف بالحداد شيخ أحمد بن زين الحبشي فتوفي سنة 1132هـ

[5] جعفر بن حرب من أئمة المعتزلة ، من أهل بغداد ، توفي سنة 236هـ

رَبِّي }[الاسراء : 85] ، كانوا على حق في ذلك ، رغم إنكار ابن القيم لقولهم ، فابن القيم لم يتحدث عن الروح إلا بما فهمه الاطباء ، والذي سنشرحه فيما يأتي ، وهو مفهوم ضيق لمعنى الروح .

وأما المعنى الرحب الذي اشار إليه الامام الغزالي وبعض العلماء الاسلام ، وأنه اللطيفة الربانية العالمة المدركة من الانسان ، والتي تطلق على القلب والنفس والعقل أيضا فهو معنى لم يستطع هضمه الامام ابن القيم ولا كثير من العلماء ، واكتفوا بما قاله الاطباء .

ونحن ان شاء الله نوضح أقوال الاطباء على ضوء التقدم العلمي الباهر ، الذي حدث في القرون الاخيرة .

كلام ابن سينا في القلب والروح :

قال الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي بن سينا[1] في كتابه (القانون) في الطب : 261/2 في فصل تشريح القلب : " أما القلب فإنه مخلوق من لحم قوي أبعد من الآفات ، فيه أصناف من الليف قوية .. " ثم أخذ يشرح تشريح القلب ، وله في ذلك ملاحظات قوية ، الا أنه أخطأ في نقطتين ، تنبه لهما فيما بعد الطبيب المشهور ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) وهما :

الأولى : أن في القلب ثلاثة بطون : بطنان كبيران ، وبطن كالوسط ليكون له مستودع غذاء ، يتغذى به كثيف قوي .. وهذا خطأ ، فالذي في الوسط هو حاجز (Septum) بين البطينين الايمن والايسر .. وهو كما ذكر ابن سينا كثيف غليظ .

والخطأ الثاني قوله : إن هذا البطن الثالث (وهو في الحقيقة حاجز بين البطينين) مستودع غذاء يتغذى به القلب .

والواقع أن عضلة القلب تتغذى بواسطة الشرايين التاجية التي كان أول من وصفها ابن النفيس كما سيأتي .

ويقول ابن سينا : ان في هذا البطن الثالث يتولد معدن روح عن دم لطيف . ويقصد بذلك تنقية الدم ، وهو أيضا خطأ ، فذلك لا يحدث في القلب ، وإنما يحدث في الرئتين ، وهو ما تنبه له العالم الفذ ابن النفيس .

وخلاصة كلام ابن سينا أن الدم يأتي الى القلب من الكبد (وهو صحيح ، حيث يأتي بواسطة الوريد الأجوف السفلي) ويذهب الى البطن الايمن من القلب ، والبطن الايمن أقرب الى الكبد (وهو أيضا صحيح) ، والكبد هي مقر طبخ الغذاء وهضمه (وهو ليس صحيحا رغم ان للكبد دورا هاما في تحويل السكريات والدهنيات الى طاقة) .

ويقول ابن سينا : " ولما كان البطن الايمن يحوي دما غليظا ثقيلا (غير مؤكسد بالتعبير الحديث) ، والايسر يحوي دما رقيقا خفيفا عدل الجانبان بترقيق البطن الايمن وتلغيظ البطن الايسر .. بل جعل وعاء الادق (وهو الايمن) أضيق وأعدل في الوسط ، وله زائدتان (Auricular Appendages) على فوهتي مدخل مادتي الدم والنسيم (الهواء) الى القلب كالاذينين " .

وقد صدق ابن سينا في هذا ، ولكنه أخطأ في ظنه أن الاذينين الايمن والايسر يفتحان في البطين الايمن .

---

[1] **أبو علي الحسين بن علي بن سينا :**ترجم له ابن أصيبعة بتفصيل في (عيون الانباء في طبقات الاطباء) وألفت حوله العديد من المؤلفات ... وقد ترجمنا له في كتابنا (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) ج2 في أعلام بخارى ... وقد ولد الشيخ الرئيس سنة 370 هـ في إحدى قرى بخارى في جمهورية أوزبكستان ، وأبوه من بلخ في شمالي افغانستان ، وأمه من بخارى ، وارتفع صيته ، وذهب الى ايران وتوفي في همذان سنة 428هـ ، ويعتبر بحق أعظم أطباء الاسلام ، وظل كتابه (القانون في الطب) يدرس في جامعات أوربة لمدة سبعة قرون .

والواقع ان كل واحد من هذين الاذينين يفتح فيما يجاوره من بطين ، فالايمن يفتح في البطين الايمن ، والايسر يفتح في البطين الايسر .

ثم ذكر ابن سينا أن انقباض الاذينين يحصل عند ارتخاء القلب (اي البطينين) وان الاذينين يرتخيان عند انقباض القلب .. وهو قول صحيح يدل على أنه رأى القلب أثناء عمله .

ووصف ابن سينا الاذينين بأنهما كالخزانتين ، يقبلان الدم من الاوعية ، ثم يرسلان الدم الى القلب . وهذا ايضا قول صحيح دقيق يؤيده الطب الحديث .

وينتهي ابن سينا الى ان الروح الحيوانية (70/1) تتولد في القلب ، وان منبت الشرايين هو من التجويف الايسر من القلب .. فتقوم هذه الشرايين بدفع الدم النقي الذي فيه الروح الحيواني الى الجسم بأكمله بواسطة العروق الضوارب .

وهذا ما ذكره ابن سينا في الروح (الحيواني) ، وأما النفس ، فقد تحدث عنها بتفصيل في كتابه (الشفاء) (أي شفاء النفس ، ولم يتحدث عنها الا بإيجاذ شديد في كتابه (القانون) لانه اعتبر ذلك من أغراض الفلسفة ، وكتاب (القانون) للاطباء ، كتاب (الشفاء) للفلاسفة ، فناسب أن يحدث الاطباء بما يهمهم من أغراضهم ، ويحدث الفلاسفة بما يحتاجونه في فلسفتهم .

وحتى لا نخرج عن موضوعنا فندع كلام ابن سينا في النفس الى حينه .. ونذكر الآن شرح ما قاله الاطباء فيما أسموه الروح الحيواني ، والذي وصفه الغزالي بأنه جسم لطيف ، منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن ، والذي ذكره الفخر الرازي بقوله : إنه جسم نوارني علوي خفيف متحرك ، منبعه القلب ، ينفذ في جوهر الاعضاء ، ويسري فيه سريان الماء في الورد ، والدهن في الزيت ، والنار في الفحم . والذي أيده ابن القيم وقال عنه : إنه القول الصواب في المسألة ، والذي لا يصح غيره ، كما تقدم .

كلام ابن النفيس في القلب والروح :

تبدو عبقرية ابن النفيس[1] في كونه أول من وصف الدورة الدموية الصغرى بدقة .

---

[1] هو علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس الدمشقي . ولد في دمشق سنة 607هـ = 1210م) .. وعمل في المستشفى النوري الكبير ، الذي أنشأه نور الدين زنكي ، ثم ذهب الى القاهرة ، وعمل بالمستشفى المنصوري ، الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون – (لا يزال هذا المستشفى قائما بعد أن جدد بناءه مرات عديدة ، ويعرف بمستشفى قلاوون لأمراض العيون ، ويقع في شارع المعز لدين الله في حي النحاسين بالقاهرة) . توفي ابن النفيس في القاهرة سنة 687هـ = 1288م) في رواية حاجي خليفة أو سنة (696هـ = 1296م) .. وقد وهب بيته ومكتبته الضخمة للمستشفى المنصوري عند وفاته .

ومن مؤلفات ابن النفيس (الكتاب الشامل في الطب) ويتألف من (300) جزء ، وقد عاجلته المنية ، فلم يتم منه سوى ثمانين جزءا .. وجدت بعد وفاته في المستشفى المنصوري ... ومعظمها الآن موجود في جامعة أكسفورد ، وله كتاب في الرمد (طب العيون) يسمى (المهذب في الكحل) وكتاب الاغذية يسمى (المختار في الأغذية) ، وكتاب في شرح مسائل حنين بن اسحاق (في مكتبة لندن) ، وتعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط (في مكتبة اسطنبول) ... واشهر كتبه (موجز القانون) وهو عرض موجز عملي لكتاب ابن سينا (القانون) في الطب ، ويقع في (4) اجزاء ، وتوجد منه نسخ في مكتبة باريس واكسفورد والمكتبة الظاهرية بدمشق ، وطبع الموجز في حيدر أباد في الهند .

ورغم احترامه وتوقيره لجالينوس[1] وابن سينا الا انه اختلف معهما في عدة مواضع وقال : " اننا نعتمد على ما يقتضي النظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفهم "

وانتقد ابن سينا في قوله : ان للقلب ثلاثة بطون وذلك في كتابه (شرح كتاب التشريح من قانون ابن سينا) وكتابه (موجز القانون) . قال : " وقوله – اي ابن سينا- وفيه ثلاثة بطون ، وهذا الكلام لا يصح ، فإن القلب له بطنان فقط ، والتشريح يكذب ما قالوه " مما يدل على ان ابن النفيس قد مارس التشريح سرا .

ويعتبر ابن النفيس أيضا من أول من فطن الى وجود أوعية دموية تغذي القلب ، وهي الشرايين التاجية ، وانتقد هنا أيضا ابن سينا قال : " وقوله – أي ابن سينا (والذي في البطين الايمن يغذي القلب) لا يصح ، فغذاؤه من العروق المارة في جسمه " .

ولهذا يعتبر ابن النفيس اول من وصف الشريان التاجي ، وأول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وأول من أشار الى مرور الدم في الاوعية الشعرية ، سابقا بذلك (وليم هارفي) الطبيب الانكليزي الذي يعزى اليه في الغرب كذبا وبهتانا اكتشاف الدورة الدموية .

وله كتاب (شرح كتاب التشريح) من قانون ابن سينا .. جمع فيه فصول التشريح المنبثة في الكتاب بعضها الى بعض ، وعلق عليها ... واختلف فيها مع ابن سينا في عدة مواضع . وقال : " إننا نعتمد على ما يقضي النظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفهم " .

ولابن النفيس كتب اخرى كثيرة في الطب والفقه والسيرة وغيرها من البحوث القيمة الواسعة .. وتتجلى عبقرية ابن النفيس في أنه كان أول من وصف الدورة الدموية الصغرى بدقة .. وأن القلب وبالذات البطين الايمن يضخ الدم الى الرئتين عبر الشريان الرئوي ، ومن ثم يعود الى القلب بواسطة الادوردة الرئوية .. فيضخها البطين الايسر الى سائر الجسد بواسطة الشريان الأورطي وفروعه .

وكان أيضا أول من وصف الشرايين التاجية المغذية للقلب وأول من أوضح ان القلب له بطينان لا ثلاثة كما زعم ابن سينا ، وأن الجدار الفاصل بين البطينين ، لا فتحة ولا مسام فيه كما زعم جالينوس .

وجاء (وليم هارفي) بعد ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون ، واتصل بأطباء ايطالية وصقيلة الذين كانو يدرسون كتب ابن النفيس ، وعرف منهم ما ذكره ابن النفيس ، ثم قام على ضوء تلك المعلومات بتشريح الجثث ، فوجد صدق ما ذكره ابن النفيس ، فنسبه لنفسه على طريقة القوم!! والامانة العلمية عندهم بالنسبة للمسلمين معدومة ، وذاع في العالم اجمع ان (وليم هارفي) هو مكتشف الدورة الدموية ..

وشاء الله أن يذهب طبيب مصري لدراسة تاريخ الطب في جامعة برلين .. واكتشف مخطوطة ابن النفيس في (شرح تشريح القانون) وتقدم بهذه الدراسة لنيل الدكتوراه ، والطبيب المصري هو الدكتور محيي الدين التطاوي (انظر الطب والاطباء لمحمود دياب ،ص 272) ومخطوط ابن النفيس موجود في مكتبة برلين برقم 62243(24) وعنوانه : (شرح تشريح القانون) ، ورسالة الدكتوراه عنوانها (الدورة الدموية للقرشي) أي ابن النفيس ، وبعد ان اعترف العلماء الألمان بهذه الحقيقة بادر ما يرهوف الى دراسة مخطوطات ابن النفيس ، وذكر سبقه لوليم هارفي .. وزعم انه اكتشف ذلك ، وتناسى دور الدكتور التطاوي (وهي شنشنة نعرفها من أخزم) . ثم تتابعت بعد ذلك الكتابات عن ابن النفيس ، ومن أوسعها كتابات الاستاذ الدكتور بول غليونجي والدكتور سامي حمارنة .

ثم بدأ العالم الغربي يعترف بفضل ابن النفيس ، وسبقه لوليم هارفي ، وان كان ذلك الاعتراف لا يزال محدودا بكتابات بعض المنصفين من أمثال (زيغريد هونكه) في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)

[1] جالينوس (Claudius Galenus) 130 – 201م : طبيب يوناني ، أحد أعظم الاطباء في تاريخ الطب ، كتب كثيرا في الطب والفلسفة .

ويصف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى (الدورة الرئوية) فيقول : " إذا لطف الدم في التجويف الايمن ، فلا بد من نفوذه الى التجويف الايسر ، حيث تولد الروح ، وليس بين التجويفين منفذ ، فإن جرم القلب هناك سميك ، وليس فيه منفذ ظاهر كما ظن جماعة ، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظن جالينوس ، فإن مسام القلب هناك مستحصنة ، وجرمة غليظ ، فلا بد وأن يكون هذا الدم اذا لطف نفذ في الوريد الشرياني (أي الشريان الرئوي .. وقد سمي بالوريد الشرياني لانه يشبه الاوردة في حمله الدم الاسود غير المؤكسد) الى الرئة ، لينبث في جرمها ويخالط الهواء ..ويتصفى ألطف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الوريدي (الاوردة الرئوية ، وقد سميت بالشريان لأنها تحمل الدم النقي الصافي الاحمر) ليوصله الى التجويف الايسر من تجويف القلب " .

هكذا إذن يصف ابن النفيس الدورة الدموية كما يعرفها الطب الحديث ، يأتي الدم بواسطة الوريد الاجوف السفلي ، والوريد الاجوف العلوي ، ويصب في الاذين الايمن ، ومنه الى البطين الايمن .

وهذا الدم غليظ أسود ، لانه غير مؤكسد ، ويحتوي على ثاني أوكسيد الكربون ..

ومن البطين الايمن ينطلق الدم غير المؤكسد في الشريان الرئوي الى الرئتين ، حيث ينقي ويصفى ويعود بواسطة الادوردة الرئوية الى الأذين الايسر ، ومنه الى البطين الايسر ..

ويقذفه البطين الايسر بواسطة الشريان الاورطي (الابهر) الى العروق الضوارب ليغذي كل خلية في جسم الانسان . ويفيض عليها بالحياة . وهنا ملاحظة لا بد أن الطبيب قد تنبه اليها ، وهي وصف ابن سينا وابن النفيس للشريانالرئوي بأنه الشريان الوريدي .

والمعروف في الطب ان الشريان هو الذي يخرج من القلب الى الجسم ، ويحمل عادة الدم الاحمر النقي المؤكسد وان الوريد هو الذي يدخل القلب الى القلب من الجسم ، ويحمل عادة الدم الازرق (الاسود) غير النقي وغير المؤكسد .

والشريان الرئوي يسمى شريانا ، لأنه يخرج من القلب ، وينطبق عليه وصف الشريان ، الا أنه يحمل الدم الازرق (الذي كان القدماء يدعونه الدم الاسود) غير المؤكسد وكأنه بذلك وريد ، ولذا سماه الاقدمون الشريان الوريدي .. وكذلك في الاوردة الرئوية فإنها أوردة تحمل الدم النقي من الرئتين الى القلب .. لذا سماها ابن النفيس الشريان الوريدي .. والمقصود قطعا الاوردة الرئوية ، لانها تشابه الشريان في حملها الدم المؤكسد النقي ، وتشابه الوريد في انها الاوعية التي تدخل الى القلب من الجسم .

مما تقدم يتضح ان الروح الجسماني الخفيف الذي وصفه الرازي وابن القيم والغزالي ، بأنه جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن ، ليس إلا الأوكسجين ، الذي يتحد في أثناء دورة الدم في الرئة ، فينفذ اليها الاوكسجين بواسطة الانتشار من الاسناخ (الحويصلات) الهوائية الموجودة في الرئة عابرا الحواجز الرقيقة من جدار الحويصلة الهوائية والشعيرات الدموية المنتشرة حول الحويصلة .

ثم ينتقل بواسطة الاوردة الرئوية الى الاذين الايسر ، ومنه الى البطين الايسر ، ومنه الى العروق الضوارب الى سائر البدن بواسطة الشريان الابهر (الاورطي) فينتشر بواسطتها الى كل خلية في جسم الانسان ، ويدخل الى كل خلية ، حيث توجد الميتوكندريا (المقدرة او المصورة الحية) وهناك يقوم الاوكسجين بوظيفته في احراق السكر والدهون في عمليات كيميائية بالغة التعقيد .

وكما يقوم الاوكسجين باشعال البنزين في موتور السيارة فيعطيها قوة الدفع والحركة ، فكذلك يفعل الاوكسجين في الجسم ، حيث يحرق السكر والدهن ، ويحولها الى طاقة وثاني اوكسيد كربون وماء .. وهي نفس عملية الاحتراق التي تحدث في البنزين وفي قطعة الفحم وفي قطعة الخشب .. "

وهو في الواقع ما وصفه الفخر الرازي بقوله : " جسم نوراني علوي خفيف متحرك منبعه القلب ، وينفذ في جوهر الاعضاء ، ويسرى فيه سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون ، وسريان النار في الفحم " .

وهو ما وصفه الامام الغزالي بقوله : " وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج ، الذي ينار في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي الى جزء من البيت الا ويستنير به " .. ثم أكد ذلك بقوله : " وهو بخار لطيف انضجته حرارة القلب " .

وهو من نوع البخار أن انه غاز ، فالاوكسجين لا شك غاز [1] ، وان كان يمكن تبريده ، والضغط عليه ، وتحويله الى سائل تحت ضغط جوي عال ، وهذا الغاز هو وسيلة الاحتراق في الفحم ، وهو وسيلة اطلاق الطاقة في كل صورة من صورها العديدة .

وقد توسع مفهومنا للطاقة في العصر الحديث ، وعرفنا ان لها صورا عديدة يمكن ان تكون آلة تدار ، أو سيارة تسير أو طائرة تطير ، أو نورا ينتشر ، أو صوتا يسمع ، ويمكن بسهولة تحويل التيار الكهربائي الى ثلاجة أو سخانة .. والمكيف ذاته يستطيع ان يسخن الجو أو يبرده .. حسب الزر الذي تضغط عليه .

وكل الاحياء – ما عدا بعض البكتيرية اللاهوائية والفيروسات – تحتاج الى الاوكسجين لاطلاق الطاقة والاستفادة منها ، يستوي في ذلك البكتيريا الدقيقة التي تقاس بالميكرون (1/مليون من المتر) وحوت البحر الذي يزن بالاطنان ، مرورا بأنواع الطحالب ، ووحيدات الخلية والديدان ، والحشرات ، والنباتات ، والحيوانات ، على جميع طبقاتها وانواعها ، حتى تصل الى الانسان ، فكل هذه الاحياء لا تعيش من دون اوكسجين .

والاوكسجين هو سر الحياة الذي كان يبحث عنه القدماء ، والذي اطلقوا عليه اسم الجسم النوراني العلوي اللطيف الخفيف المتحرك ، وهو هو الذي اطلقوا عليه اسم البخار اللطيف الذي أنضجته حرارة القلب .

لقد احتاج الانسان الى آلاف السنين ليدرك سر هذا الروح الجسماني .

أما اللطيفة الربانية المدركة العاقلة من الانسان فتنطوي تحت سر { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**}[الاسراء :85] ولن يكشف هذا السر لأغلب البشر الا يوم يقال : { **فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** }[ق : 22] . وذلك لان سر الروح يندرج في سر قوله تعالى : {**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**}[الحجر : 29] .

والله نسأل ان يرزقنا كمال الايمان ، وكمال المتابعة لسيد ولد عدنان محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى نحظى بادراك شيء من هذه الاسرار

---

[1] غاز الاوكسجين عديم اللون والرائحة والطعم . يكون (21%) من الهواء الجوي ، لا يحترق ، ولكن لا يتم الاحتراق الا بوجوده ، شديد النشاط الكيماوي ، ويتحد بعناصر عديدة مكونا الاكاسيد . وفي الدم يتحد بالهيموجلوبين (صبغة الدم الحمراء) في الرئتين فإذا وصل الى الانسجة ترك الهيموجلوبين ، ودخل في تفاعلات داخل الخلايا بواسطة أنزيمات عدة موجودة في الميتوكوندريا ، رئة الخلية . وأول من فصل الاوكسجين الكيميائي بريستلي سنة 1774 وأثبت لافوزييه بعده ببعض سنوات أنه أحد مكونات الهواء الجوي

الفصل الخامس
معاني النفس

يقول الامام الغزالي في (الاحياء)[1] بعد أن شرح لفظ (القلب) و(الروح) .

اللفظ الثالث : (النفس) وهو أيضا متشرك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان :

أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الانسان ، على ما سيأتي شرحه . وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لانهم يريدون بالنفس الاصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان ، فيقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها . وإليه الاشارة بقوله عليه السلام : **"** أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**"**[2].

والمعنى الثاني : هو اللطيفة التي ذكرناها التي هي الانسان بالحقيقة ، وهي نفس الانسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الامر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة .. قال تعالى في مثلها : **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}**[الفجر : 27-28] .

والنفس بالمعنى الاول لا يتصور رجوعها الى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله ، وهي من حزب الشيطان .

وإذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ، ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه . قال تعالى : **{وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}**[القيامة :2].

وان تركت الاعتراض ، وأذعنت وأطاعت لمتقضى الشهوات ، ودواعي الشيطان ، سميت النفس الأمارة بالسوء ، قال تعالى إخبارا عن يوسف أو امرأة العزيز : **{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }**[يوسف:53] .

وقد يجوز أن يقال : المراد بالامارة بالسوء هي النفس بالمعنى الاول .

فإذا النفس بالمعنى الاول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة ، لانها نفس الانسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات ..

وقد ذكر الامام ابن القيم في كتابه (الروح)[3] تحت باب المسألة التاسعة عشرة ما هي حقيقة النفس ؟ هل هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه ؟ وهل هي الروح أو غيرها .. ذكر الامام ابن القيم العديد من الاقوال المختلفة في النفس والروح ، والتي سبق الاشارة اليها في الفصل الرابع .

وخلاصة كلامه ان العلماء اختلفوا الى فرق كثيرة في النفس ، كما اختلفوا في الروح ، فمنهم من قال : ان النفس هي الروح ، ومنهم من قال : ان النفس غير الروح . وقال بعضهم : ان النفس هي الدم ، واستدل بكلام الفقهاء عن عدم نجاسة الماء إذا وقعت فيه حشرة (ما لا نفس له سائلة)[4].

وقالت طائفة: ان النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس ، وهذا قول القاضي ابو بكر الباقلاني ، ومن تبعه من الاشعرية .

---

[1] كتاب شرح عجائب القلب من (احياء علوم الدين) ، طبع دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت ،2/3.

[2] أخرجه البيهقي عن حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

[3] كتاب الروح ، لابن القيم ص75

[4] يرى جماعة شهود يهوة (Jehova Witnesses) ان الروح (النفس) موجودة في الدم. ولذا يمتنعون امتناعا تاما عن نقل الدم ويرفضونه ، ولو ادى ذلك الى موت احدهم . وهم موجودون في الولايات المتحدة وفي أوربة . وقد اصدرت الدولة العربية تشريعات تسمح بنقل الدم لاطفال هؤلاء القوم رغم انف أوليائهم .

وقال ابن حزم : النفس والروح مترادفان لمعنى واحد . وقال : ان النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان ، جثة متحيزة مصرفة للجسد ... ورغم غرابة هذا الكلام وشذوذه فقد زعم ابن حزم ان سائر أهل الاسلام ، بل والملل المقرة بالمادة ، لا ترى غير قوله هذا .

وقالت طائفة : ليست النفس جسما ولا عرضا ، وليست النفس في مكان ، ولا لها طول ، ولا عرض ، ولا عمق ، ولا لون ، ولا بعض ، ولا هي في العالم ، ولا خارجه ، ولا مجانبة له ، ولا مباينة ، وهو قول أرسطو[1] ، وبه قال أفلاطون[2] وفلاسفة المسلمين ، ومنهم ابن سينا والفارابي[3].

وخير من يمثل هذا الرأي هو ابن سينا ، الذي عبر عنه اجمل تعبير في قصيدته العينية المشهورة ، التي يقول فيها عن النفس :

هبطَتْ إليك من المَحَلِّ الأرفعِ ..... ورقاءُ ذاتُ تعَزُّزٍ و تَمَنُّعِ

محجوبةٌ عن كلِّ مُقلةِ ناظرٍ ..... و هي التي سَفَرَتْ و لم تتبَرْقَعِ

أنِفَتْ و ما أنِسَتْ فلما واصَلَتْ ..... ألِفَتْ مجاوَرَةَ الخرابِ البلقَعِ

و أظنها نسيتْ عهوداً بالحمى ..... و منازلاً بفراقها لم تَقنَعِ

حتى إذا اتصلتْ بهاءِ هبوطها ..... مِنْ ميمِ مركزِها بذاتِ الأجْرَعِ

عَلِقَتْ بها ثاءُ الثقيلِ فأصبحتْ ..... بين المعالمِ و الطُلولِ الخُضَّعِ

تبكي إذا ذكرتْ عهوداً بالحمى ..... بمدامعٍ تهمي و لم تتقَطَّعِ

و تظلُّ ساجعةً على الدِّمَنِ التي ..... درسَتْ بتكرارِ الرياحِ الأربعِ

إذ عاقَها الشَّرَكُ الكثيفُ و صدَّها ..... قفصٌ على الأوجِ الفسيحِ المِربعِ

حتى إذا قرُبَ المسيرُ إلى الحمى ..... و دنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسَعِ

و غدَتْ مُفارِقَةً لكلِّ مُخَلَّفٍ ..... عنها حليفُ التُرْبِ غير مُشَيَّعِ

هجعَتْ و قد كُشِفَ الغطاءُ فابصَرَتْ ..... ما ليسَ يُدرَكُ بالعيونِ الهُجَّعِ

و غدتْ تُغرّدُ فوقَ ذروةِ شاهقٍ ..... و العِلمُ يرفَعُ كلَّ من لم يُرفَعِ

فلأيِّ شيءٍ أُهْبِطَتْ مِنْ شامخٍ ..... عالٍ إلى قَعرِ الحضيضِ الأوضَعِ ؟

إنْ كانَ أهْبَطَها الإلهُ لِحكمةٍ ..... طُوِيَتْ عن الفَذِّ اللبيبِ الأروَعِ

فهبوطُها . لا شكّ . ضربةُ لازِبٍ ..... لتكونَ سامعةً لِما لم تَسمعِ

و تعودُ عالمةً بكلِّ خفيَّةٍ ..... في العالمينَ .. و خَرْقُها لم يُرْقَعِ

و هي التي قطعَ الزمانُ طريقَها ..... فكأنما غرَبَتْ بعينِ المَطْلَعِ

فكأنها برقٌ تألَّقَ بالحمى ..... ثمّ انطوى .. فكأنّهُ لم يلمعِ[1]

---

[1] أرسطو (Aristole) 382 – 322 ف.م : من مشاهير فلاسفةاليونان وصاحب منطقهم ، وهو تلميذ أفلاطون ، واستاذ الاسكندر المقدوني .

[2] افلاطون (Plato) 347-427 ق.م : من مشاهير فلاسفة اليونان وهو تلميذ سقراط.

[3] محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ أبو نصر الفارابي (260 -339هـ = 874 – 950م) يعرف بالمعلم الثاني ، وهو أكبر فلاسفة المسلمين .

وخلاصة معنى هذه القصيدة ، ان النفس كانت في الاماكن العلوية الشريفة ، تجتلي من الذات الالاهية العلية عن طريق الفيض ، ثم هبطت وحبست في ذلك البدن الثقيل حتى نسيت عهودها ومرابعها المنفية الشريفة ، وارتبطت بسجن ذلك البدن الثقيل الهابط ، وألفت مراتع الدمن والمستنقعات ، رغم انها دخلت اليه كارهة ، فألفت البدن ، ثم نسيت العهود القديمة ، وعز عليها بعد ذلك ان تفارق هذا البدن ، ولكنها تفارقه مكرهة كما دخلت اليه مرغمة ، فعند ذاك تدرك المعاني الرفيعة ، وينقشع عن العين غبشها وتتضح لها الحقائق : {**فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**}[ق:22] عند ذاك ترتاح النفس لاتصالها بالعالم العلوي ، الذي كانت فيه .

ويتساءل ابن سينا عن الحكمو في هبوط النفس من عالمها العلوي الى ذلك البدن السفلي ، فيقرر ان هبوطها كان امرا لازما ، أوجبه الخالق القادر القاهر الحكيم في صنعته ، لكي تدرك النفس من عظمته ما لم تكن تدركه ، ولكي تشاهد عالم الملك كما شاهدت عالم الملكوت ، وترى عالم الشهادة كما ابصرت من قبل عالم الغيب ، فما رحلتها في البدن وخروجها منه الا كبرق خاطف تألق في السماء ثم خبا .

وأوضح ابن سينا آراءه في النفس في كتابه الموسوعي الفلسفي (الشفاء) ، واتبع فيه تقسيم أفلاطون وأرسطو وأفلوطين[2] ، ومزج ذلك بثقافته الطبية والدينية الواسعة وقرر ان النفوس ثلاث : نباتية ، حيوانية ، وناطقة ، وان النفس – التي تحدث عنها قصيدته العينية المشهورة – انما ترجع الى النفس العلوية المستمدة من العقل الكلي .. أي من الذات الالهية ، ويعرف النفس بقوله : " ان النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة " . وهي موجودة ، ولكن وجودها ليس وجودا ماديا ، وهي مستقلة عن البدن ولها صفة الخلود ، ولا تنشأ النفس من امتزاج العناصر كما زعم آخرون ولكنها عارضة .

ولكل جسد نفس خاصة لا تصلح الا له ، وهي تفيض عليه من واهب الصور .

هذه خلاصة لأراء ابن سينا ، وهي تمثل رأي الفلاسفة الاغريق الالهيين ، مقل : أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ، ويخالفون ما ذهب اليه علماء الاسلام قاطبة من ان النفس مخلوقة حادثة ، فيقولون بخلودها وقدمها ، وعلماء الاسلام على حدوثها ، وإن كان أغلبهم يرى خلودها بعد ذلك ، وهذه احدى نقاط الخلاف بين الفلاسفة المسلمين وفقهاء الاسلام .

وما اورده ابن سينا في النفس هو ما يقصده في الروح ، وهو قطعا غير الروح الذي ينبع من تجويف القلب ، والذي به حياة البدن ، فذلك قد اوضحنا أنه ليس الا الأوكسجين ، حسب استقراء كلام الأطباء ، وما يعنونه بالروح ، بل وكلام كثير من علماء الاسلام ، ومن بينهم الفخر الرازي وابن القيم ، وصرح به الامام الغزالي – كما تقدم معنا – حيث قال : انه بخار انضجته حرارة القلب .

وأشد هذه الآراء غرابة تلك التي تجعل الروح والنفس هي جسم طويل عريض له جثة ، كما يقول ابن حزم ، أو تلك التي تقول : ان الروح والنفس ليسا الا الجسد الذي يراه ويشاهده ، كما يزعم الاصم ، أو تلك التي تقول : ان النفس والروح ليسا سوى الدم الصافي الخالص من الكدر ، وهي أقوال كثيرة ، حكى الامام الشوكاني أنها تربو على ثمانمئة وألف قول ، كلها أو أكثرها لغو ، لا طائل تحته ، واقربها الى الصحة هو ما ذكره الامام الغزالي من أن القلب والروح والعقل والنفس : ألفاظ تطلق كل واحدة منها على عدة معان ، وتشترك جميعها في معنى واحد ، هو تلك اللطيفة الربانية ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، وهو سر من الاسرار ، واليه الاشارة بقوله تعالى : { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**}[الاسراء : 85].

---

[1] لهذه القصيدة رغم شهرتها عيوب شعرية ، فهي مليئة بالفلسفة والكلمات غير الشعرية مثل قوله : علقت بها . الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع وقد عارضها كثيرا من الشعراء . آخرهم الشاعر العدني اليمني علي محمد لقمان المتوفى سنة 1979 في قصيدته (الروح) ومطلعها :

أف على الدنيا فلا تتوجعي   تحت الثرى ما فوقه بالممرع

[2] أفلوطين : فيلسوف اسكندراني مؤسس الفلسفة الغنوصية الاشراقية .

النفس في القرآن الكريم [1] :

لقد ذكر الله تعالى النفس في نحو (367) موضعا ، وقد جاءت بعدة معان ، أغلبها تعني الذات الانسانية بصفاتها المختلفة ، ومن المعاني التي وردت فيها لفظ النفس ما يلي :

1 - النفس بمعنى الانسان ، قال تعالى {**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**}[المائدة :45] ، {**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ**}[البقرة :286] ،{**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**}[النساء : 29] .

2 - النفس بمعنى أصل الخلقة (أي آدم) : {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**}[النساء:1] ، {**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**}[الاعراف :189].

3 - النفس بمعنى الروح : {**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**}[الزمر:42][2] ، {**وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ**}[الانعام :93].

وروى القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : في ابن آدم نفس وروح ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هي العقل ، والروح هي التي بها النفس والتحريك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه .

النفس وصفاتها :

أ - **الأمارة بالسوء :** قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز :{ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**}[يوسف :53] ، وهذا هو وصف النفس المتلبسة بالهوى ، المتبعة للشيطان .

ب -**النفس اللوامة :** فإذا ما بدأت تلوم الشخص على فعله السوء ، وتنصحه بفعل الخير ، فهي النفس اللوامة . قال تعالى : { **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** } [القيامة :1-2] ، فهي كثيرة اللوم لصاحبها تقرعه وتبكته على ارتكاب الآثام والمعاصي ، وعلى عدم مسارعته في الخيرات ..

ت -**النفس المطمئنة :** فإذا تمكن الانسان من تهذيب نفسه والارتقاء بها الى أعلى الصفات ، فهي النفس الراضية المطمئنة . قال تعالى : {**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**}[الفجر : 27-30] ، وهي نفس قد انعم الله عليها بهذه السكينة والطمأنينة ، فهي قد بلت تلك المنزلة العالية ، والدرجة الرفيعة من الرضا بأحكام الله ، والسكون الى قضائه ، فلا تقلق ولا تضطرب ، ويمثلها اصدق تمثيل وأروعه وأكمله موقف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو غار ثور والمشركون محيطون به ، لو نظر احدهم الى أسفل قدمه لرآه هو وصديقه وصاحبه في الغار . وأبو بكر رضي الله عنه قد تملكه الرعب خوفا على حبيبه ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : يا رسول الله ! لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وقد امتلأت نفسه سكينة واطمئنانا : " يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن ان الله معنا " فاطمأنت عندئذ نفس أبي بكر رضي الله عنه .

---

[1] لقد توسع الشيخ ابراهيم سرسيق في هذا الباب ، ووضع فيه كتابا قيما هو (النفس في القرآن الكريم) ، فليرجع اليه القارئ الكريم لمزيد من التفصيل

[2] قال الزمخشري في (الكشاف) في تفسير هذه الآية : يتوفى الله الانفس حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى ، حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما ان الموتى كذلك ، فيمسك التي قضى عليها الموت الحقيقي ، أي لا يردها . ويرسل الاخرى النائمة الى جسدها الى اجل مسمى . وقالوا : ان التي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ، لان نفس الحياة اذا زالت زال معها النفس . والنائم يتنفس.

وقد وصف المولى سبحانه وتعالى هذه الحادثة بأروع بيان حيث يقول عز من قائل : {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ}[التوبة : 40].

ولا يمنع ذلك ما جاء في بعض التفاسير من ان هذه النفس تنادى عند الموت ب **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}**[الفجر : 27-28] فقد كانت مطمئنة في حياتها الدنيا ، ثم تسمع النداء من الملائكة الذين يحفون بها أثناء احتضارها ، يبشرونها بالجنة .

وقد ذهب الحافظ ابن كثير الى ان الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره .

قال القرطبي[1] في (تفسيره) : " قال الحسن البصري[2] : إن الله تعالى اذا اراد ان يقبض روح عبده المؤمن اطمأنت النفس الى الله تعالى .

" وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : إذا توفي المؤمن ، ارسل الله اليه ملكين ، وارسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : اخرجي ايتها النفس المطمئنة راضية مرضية ومرضيا عنك ، اخرجي الى روح وريحان ورب راض غير غضبان . فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من انفه على ظهر الارض " .

وفي الحديث الشريف[3] : " قل اللهم اني أسألك نفسا بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك ".

فإذا حاز شخص هذه الثلاث فقد اصبحت نفسه مطمئنة فمن أمن وأيقن بلقاء الله أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه .

ومن رضي بقضاء الله ، فقد أسقط التدبير مع الله وترك الاعتراض عليه ، بل وفرح ورضي بما قضاه عليه .

وإذا قنع بنصيبه من الدنيا ، فذلك هو الغنى والراحة التامة للنفس التي لا يصيبها غل ولا حقد ، ولا تتطلع الى ما في أيدي الناس ، بل تنظر اليهم بعين الرحمة والشفقة .

الخلاصة :

نخلص من ذلك كله الى ان لفظ (النفس) مثل لفظ (القلب) و (الروح) و (العقل) يحتمل معان عديدة ، منها ما هو مادي بحت مثل القلب العضلي ، ودخول الهواء وخروجه في عملية الشهيق والزفير ، التي تعتبر من أهم علامات الحياة الجسدية .

والغريب ان الامام أبا بكر الباقلاني وطائفة من الاشاعرة – كما ينقله ابن القيم في كتاب (الروح) – قالوا : ان النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس .

وسبق ان وصلنا الى ان خلاصة ما وصل اليه القائلون بالروح والجسد ، هو جسم لطيف يتكون في جوف القلب ، وانه ينبعث مع الشرايين الى كافة اجزاء الجسم فيملؤها بالحياة ، وباستقراء أقوال الاطباء السابقين من امثال ابن سينا وابن النفيس ، وعرفنا انهم انما قصدوا بذلك الاوكسجين ، وها هو الباقلاني يحدد النفس بالنسيم، أي : الهواء الذي يدخل ويخرج بالتنفس ، وأهم ما يحتاجه الانسان من هذا الهواء هو الاوكسجين ، الذي يتم نقله الى الحويصلات الهوائية (Alveoli) ومنها عبر الجدر الرقيقة الى الشعيرات الدموية ، ثم تتجمع الشعيرات الدموية ، بعد ان يتحد خضاب الدم (الهيموغلوبين) بالاوكسجين ، وتنحدر الى القلب في أربعة أوردة رئوية تحمل الدم النقي الصافي المؤكسد ، ويصب هذا في الاذين الايسر ، ومنه الى البطين الايسر ، الذي يضخه عبر الشريان الابهر (الاورطي) الى سائر انحاء البدن في ضربات متلاحقة تبلغ

---

[1] القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن : 58/20

[2] الحسن بن يسار : سيد التابعين وامام من أئمة المسلمين ، توفي بالبصرة سنة 110هـ

[3] ذكره ابن كثير في تفسيره :511/4

الثمانين في الدقيقة أو تزيد يضخ القلب فيها آلاف الليترات من الدم في اليم الواحد في مواجهة ضغط دم عال (120مم من الزئبق) .

وأهم علامة للموت لدى الاطباء ، هي توقف القلب وتوقف التنفس .

وبما ان الطب قد تقدم لدرجة ان التنفس يمكن ان يستمر لفترة بمساعدةجهاز يسمى المنفسة (Ventilator or Respirator) فإن القلب قد يستمر فترة في العمل بعد توقف التنفس .

وبما ان مركز التنفس هو في اسفل الدماغ فيما يعرف بجذع الدماغ(Brain Stem) فإن التنفس يتوقف اذا اصيب جذع الدماغ ، فإذا كانت الاصابة مؤقتة أمكن الشفاء بإذن الله ، فتعمل المنفسة حتى تستعيد مراكز التنفس قدرتها على العمل الذي أنيط بها .

أما اذا كانت الاصابة دائمة ، ومراكز التنفس قد ماتت الى الابد فهنا تأتي تعريف موت الدماغ ، ليحاول ان يحل هذا الاشكال العسير الذي ظهر مع التقدم الطبي والتكنولوجي الهائل الذي حدث في الربع الاخير من القرن العشرين .

الفصل السادس

متى تنتهي الحياة الانسانية الدنيوية ؟

تعريف الموت (بصورة عامة):
إن تعريف الموت مثل تعريف الحياة أمر يكتنفه كثير من الصعوبات ،رغم أن العلامات الفارقة بين الموت والحياة ،وبين الكائن الحي والجماد أمر يدركه الإنسان بفطرته ، كما يدركه بمعارفه .
فالكائن الحي يتنفس ويتغذى ، وينمو ويتكاثر ،ويتحرك ، ثم تختلف بعد ذلك طرق التنفس والغذاء ، والنمو والتكاثر والحركة ، بأشكالها المتعددة المتباينة ، التي لا تكاد تعدّ ولا تحصى .

وأصعب تلك الكائنات تحديدا هي الفيروسات ، فهي كالجماد لا تتحرك ولا تنمو ، ولا تتنفس ولا تتغذى خارج الكائنات الحية ، بل تتبلور مثل بعض الجمادات ، فإذا ما دخلت إلى جسم الكائن الحي تحكمت في سر السر فيه (جينوم الخلية الموجودة في الدنا DAN)، وجعلته عبدا لمشيئتها ، لا ينقسم إلا حسب أوامرها ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يهب الأجسام الحية القدرة على مقاومة هذا الغزو الفيروسي لأبادت الفيروسات جميع الكائنات الحية ابتداء من البكتيريا وانتهاء بالإنسان . ومع هذا كله فالفيروس داخل الخلايا الحية لا يتنفس ولا يتغذى ، ولا يتحرك ولا ينمو ، بل كل ما في الأمر أنه يتحكم بالخلايا ، فيجعلها تنقسم لتصبح فيروسات جديدة من جنسه بدلا من أن تنقسم إلى خلاياها المعتادة .
وهناك ما هو أشد صعوبة وفهما من الفيروسات ، وهو ما تم كشفه حديثا من وجود مادة تسمى (البايرون) وهي مجرد بروتينات ، ليست فيها مادة الحامض النووي ، ومع ذلك تنتقل وتسبب أمراضا أكثرها شهرة (مرض جنون البقر) الذي أدى إلى التخلص من ملايين الأبقار في بريطانيا و أوروبا مسببا خسائر مادية فادحة ، وهو ينتقل إلى الإنسان مسببا مرض (كرتز فيلد جاكوب) وهو مرض يؤدي إلى مختلف أنواع الشلل ، ثم الموت ، ومثله مرض (سكرابي) الذي يصيب الأغنام ، ومرض (كورو) الذي يصيب الجهاز العصبي للإنسان .

وفي أجسام الكائنات الحية المتعددة مثل الإنسان أو الحيوان أو النبات تموت ملايين الملايين من الخلايا في كل لحظة وآن ، ويخلق الله بدلا عنها ملايين مثلها . وتبقى هذه الكائنات الحية على قيد الحياة مادامت عملية البدء والإعادة مستمرة . قال تعالى : {قل **هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**}[يونس: 34]

ولقد صدق الإمام الغزالي حين قال : نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه الموت ، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة معرفة حقيقة الروح في نفسها ، وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول : {قل الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}[الاسراء: 85] ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف سر الروح ، وإن اطلع عليه ، إنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت [1].

تعريف الموت عند المسلمين (التعريف الشرعي للموت):

إن تعريف الموت عند المسلمين لا يختلف عن تعريفه في الحضارات الإنسانية المختلفة ، والأديان المتباينة التي عرفتها البشرية . فقد اتفق المصريون القدماء ، والبابليون ، والآشوريون ، واليونان ، والصينيون ، والهنادكة ، واليهود ، والنصارى ، والمسلمون على أن الموت هو مفارقة الروح الجسد .

[1] احياء علوم الدين ، باب حقيقة الموت :493/4 - 494

ثم اختلفوا بعد ذلك اختلافات كثيرة في هذه الروح ، هل تعود إلى هذا الجسد أم تعود إلى جسد آخر ؟ حيث يعتقد البوذيون والهنادكة والشنتو أن الروح الشريرة تعاد إلى جسد حقير ، وتظل في تلك الدورات حتى تتطهر ، و أن الروح الصالحة الخيرة تظل تنتقل في الأجساد الخيرة ، حتى تصل مرحلة (النرفانا) وهي السعادة الأبدية المطلقة في الروح المتصلة بالأزل والأبد.

والمفهوم الإسلامي للموت هو : انتقال الروح من الجسد إلى ما أعد لها من نعيم أو عذاب ، والروح مخلوقة مربوبة ، خلقها الله تعالى ، ثم هي خالدة ، والمقصود بموتها مفارقتها الجسد .. هذا هو مفهوم جمهور علماء المسلمين للموت ، وإن خالف من خالف من المعتزلة وغيرهم .

قال الإمام ابن القيم في كتابه (الروح)[1] :"والصواب أن يقال : إن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها ، وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهي لاتموت بهذا الاعتبار ".

وقال الإمام الغزالي في (الإحياء) : "إن الموت معناه تغيير حال فقط ، وإن الروح باقية بعد مفارقة الجسد ، إما معذّبة وإما منعّمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عنه بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى إنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح .

"والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها ، وكل الأعضاء آلات ، والروح هي المستعملة لها ، وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ، ولذّات الأفراح . ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذّات .

والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات ، وذلك لا يموت – أي لا ينعدم – ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له"[2].

قال الإمام ابن تيمية كما ينقله عنه ابن القيم في كتاب (الروح): "قد استفاضت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأرواح تقبض وتنعم وتعذب . ويقال لها : اخرجي أيتها الروح الطيبة ".

ويقول الإمام الطحاوي[3] في (عقيدته):"ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين".

قال الشارح : والصواب أن يقال : "موت النفوس هو مفارقتها للأجسادها وخروجها منها "[4].

---

[1] ابن القيم ، الروح ، ص34

[2] الغزالي ، احياء علوم الدين 493/4 -495

[3] أحمد بن محمد سلامة الأزدي الطحاوي ، أبو جعفر (239-321هـ) ، محدث ، فقيه ، انتهت اليه رئاسة الحنفية بمصر.

[4] نقلا عن كتاب (الروح) ، لابن القيم

ويقول فضيلة الشيخ بكر أبو زيد رئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي رحمه الله ، في بحثه القيّم (أجهزة الأنعاش وحقيقة الوفاة بين الفقهاء والأطباء):" إن حقيقة الوفاة هي مفارقة الروح البدن ، وإن حقيقة المفارقة خلوص الاعضاء كلها عن الروح ، بحيث لا يبقى جهاز من أجهزة البدن فيه صفة حياتية"[1]

ويقول الامام الغزالي في (سكرات الموت وشدته) من كتاب (الاحياء) : " ان كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، إذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فمهما اصاب العضو جرح او حريق سرى الأثر الى الروح ، فبقدر ما يسري الى الروح يتألم.. والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فلستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن الا وقد حلَّ به الألم ، لو اصابته شوكة فالألم الذي يجده انما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي اصابته الشوكة . فألم النزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، إن المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب ، وجزء من الاجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق الى القدم ، فلا تسأل عن كربه وألمه"[2] .

اخراج الروح:

وقد وكل الله سبحانه وتعالى ملائكة يقومون باخراج الروح من البدن . قال تعالى :{ **قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**}[السجدة : 11] ، وملك الموت الموكل بأرواح الآدميين هو عزرائيل عليه السلام ، ويساعده في ذلك عدد غير معروف من الملائكة ، قال تعالى : { **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**}[النساء : 97] .

وقال تعالى : { **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ** }[الانعام :93] ولو رأينا ذلك لرأينا أمرا مهولا مرعبا.

وعلى العكس من ذلك تقوم الملائكة بتبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، وتسلم عليهم ، وتنزع أرواحهم نزعا رفيقا ، وقال تعالى : { **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ** }[النحل : 32] . ولا ينفي ذلك كرب السياق وآلام النزع ، فقد تألم خير الخلق وأكرمهم على الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكرب في نزعه ، حتى قالت فاطمة رضي الله عنها : "واكرب أبتاه " ، فقال لها :" لا كرب على ابيك بعد اليوم " [3].

ولكن ما يخفف عن المؤمن آلام النزع وكرب السياق ما يراه من البشائر عند قدوم الملائكة . قال تعالى : { **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**}[الفجر : 27 -30] ، قال المفسرون : يقال لها ذلك عند النزوع وعند البعث[4].

---

[1] بكر أبو زيد ، مجلة مجمع الفقه الاسلامي ، الدورة الثالثة 1408 هـ / 1987م ، المجلد الثالث : 529/2 - 541

[2] احياء علوم الدين : 461/4

[3] صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، ومسند أحمد ، وسنن ابن ماجه

[4] الروح ، لابن القيم ص 180.

وذكر ابن القيم : حديث أبي هريرة رضي الله عنه " أن المؤمن تحضره الملائكة" فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي ايتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وابشري بروح وريحان وربّ غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج"[1] الحديث.

أما الكفرة والعصاة المردة فإنه ينكّل بهم ، ويرون سوء مصيرهم عند الموت ، وتضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، قال تعالى : {**وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**} [الانعام : 93] ، وقال تعالى : {**وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** }[الانفال : 50].

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة قال :" وإذا كان الرجل السوء قال (أي الملك): اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وابشري بحميم وغسّاق ، واخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها حتى تخرج"[2] .

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توضح كيفية اخراج الملائكة لروح المؤمن وروح الكافر .وما في الأول من تيسير ، حتى تسيل مثل الماء من فم السقاء ، وما في الثاني من تنكيل ، حتى تخرج كما يخرج السفود المبلل من كومة من الصوف ، كما جاء في حديث البراء بن عازب وغيره الذي اخرجه ابن منده ، وذكره ابن القيم بطوله في كتاب (الروح). وقد استوفى ابن القيم في (الروح) ذكر الكثير من هذه الاحاديث[3].

ويأتي الاسناد في اخراج الروح في بعض الآيات الى الله سبحانه وتعالى مباشرة ، حيث هو الفاعل على الحقيقة ، ولا أحد سواه ، قال تعالى : {**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**}[الزمر : 42] ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل لكل شيء في هذا الكون صغيره وكبيره ، والملك مأمور ، يفعل ما أمره به ربه سبحانه وتعالى .

الروح وتأثيرا في البدن :

اتفق جمهور علماء أهل السنة على ان الروح هي المحرّكة للبدن ، وانها هي المتصرّفة فيه ، والموت هو مفارقة الرح للجسد ، وانقطاع تصرّفها عنه بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الاعضاء آلات للروح – كما يقول الامام لغزالي – والموت عبارة ن استعصاء الاعضاء عن فعل الروح. والروح هي المدّركة للعلوم وآلام الغموم ولذّات الارواح ، كما يقول الغزالي في(الاحياء) – سبق وان نقلنا قوله كاملا – والروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام هي امر علوي سماوي لا تدركه الابصار ، ولم ينفخ الله الروح في ادم الا بعد ان سوّاه جسدا من الطين ، قال تعالى :{ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** }[الحجر: 29].

---

[1] **الروح ، لابن القيم ، ص 184**

[2] **اخرجه الشيخان**

[3] **الروح ،ص 46 - 50**

حكم المولود اذا لم يستهل صارخا :

لم يحكم الفقهاء للمولود بالحياة الا اذا استهل المولود صارخا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم :" اذا استهل المولود ورث"[1] . وقول جابر بن عبد الله والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما : " قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يرث الصبي حتى يستهلّ"[2] .

فإذا كان المولود حديثا وقد نفخت فيه الروح منذ اشهر عديدة ، لا يحكم له الحياة الا عندما يستهلّ صارخا او يستدل على حياته بأمارات موثّقة عندهم ، فإنه من العجيب جدا ان لا يحكم لمن مات دماغه وبالتالي فقد الاحساس والحركة والارادة بالموت .

جاء في (الموسوعة الفقهية)[3] : " وتعرف حياته – أي المولود – بالاستهلال صارخا ، واختلف الفقهاء فيما سوى الاستهلال . فقالت طائفة : " لا يرث حتى يستهل صارخا " وهو المشهور عن الامام أحمد ".

وروي عن كثير من الصحابة والتابعين مستدلين بأن مفهوم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " اذا استهل المولد ورث" أنه لا يرث بغير استهلال[4] ، ولان الاستهلال لا يكون الا من حي . والحركة تكون من غير حي . والمقصود بالحركة هنا الحركة الاضطرارية ، مثل حركة المذبوح المعروفة بالافعال الانعكاسية ، التي تحدث احيانا في حالات موت الدماغ ومصدرها النخاع الشوكي وليس الدماغ .

ويعرّفه الغربيون باسم (حركة لاعازر) اشارة الى (عازر) الذي أحياه المسيح عليه السلام بعد ان مات .

وروي عن احمد انه قال : يرث السقط ويورث اذا استهل ، فقيل : ما استهلاله ؟ قال : اذا صاح او عطس او بكى .

فعلى هذا كل صوت يوجد منه تعلم به حياته فهو استهلال . وهذا قول الزهري والقاسم بن محمد ، لانه صوت علمت به حياته ، فأشبه الصراخ .

وعن احمد رواية ثالثة بصوت او حركة او ارضاع او غيرذلك ورث ، وثبت له احكام المستهلّ لانه حي ، وبهذا قال الثوري والاوزاعي والشافعي وابو حنيفة وأصحابه .

أما الامام مالك فلا يعد الجنين حيا ما لم يستهلّ ، ولو تنفّس او تحرّك او بال .. يقول فضيلة الشيخ المختار السلامي : يرى الامام مالك بن انس رضي الله عنه ان المولود اذا لم يصرخ لا يعتبر حيا ولو تنفّس او بال او تحرّك . ومعنى هذا انه لا يحكم له بالحياة بمجرد التنفس حتى يقرن بها البكاء .

---

[1] اخرجه ابو داود : 83/3، والبيهقي: 275/6

[2] اخرجه ابن ماجه ، حديث رقم (2571)

[3] الموسوعة الفقهية ، وزارة الاوقاف ، الكويت 1983م : 66/3.

[4] يسمى هذا عند علماء الاصول مفهوم المخالفة

وقال ابن الماجشون : أن العطاس يكون من الريح ، والبول من استرخاء المواسك (أي العضلات العاصرة Sphincter) ، ما لم يكن الفعل اراديا استجابة لتنظيم الدماغ لا يعتبر امارة حياة[1] . انتهى كلام فضيلة الشيخ محمد المختار السلامي مفتي تونس السابق .

ويقول فضيلته ايضا في بحثه المقدم الى الدورة الثالثة لمجمع الفقه الاسلامي مفصلا وموضحا أقوال المذهب المالكي : " يقول خليل بن اسحاق (ولا سقط مالم يستهلّ صارخا ، ولو تحرّك او بال أو رضع) . ان هذه الفقرة تجعل مقياس الحياة الصوت ، وقد فصلّ اللخمي ما تكون به الحياة فقال : اختلف في الحركة والرضاع والعطاس فقال مالك : لا يكون له بذلك حكم الحياة . قال ابن حبيب : وان اقام يوما يتنفس ويفتح عينيه ويتحرك حتى يسمع له صوت ، وان كان خفيا . قال اسماعيل : وحركته كحركته في البطن لا يحكم له فيها بحياة . قال عبد الوهاب : وقد يتحرك المقتول .

وعارض هذا المازري وقال : لا معنى لإنكار دلالة الرضاع على الحياة ، لأننا نعلم يقينا أنه محال بالعادة ان يرضع الميت ، وليس الرضاع من الافعال التي تكون بين الطبيعية والاختيارية ، كما قال ابن الماجشون : ان العطاس يكون من الريح ، والبول من استرخاء المواسك (العضلات العاصرة) ، لان الرضاع لا يكون الا من القصد اليه . والتشكك في دلائله على الحياة يطرق الى هدم قواعد ضرورية . والصواب ما قاله ابن وهب وغيره : انه كالاستهلال بالصراخ"[2]

<u>مالم تكن حياة مستقرة فلا حياة</u>

يقول الدكتور محمد سليمان الاشقر في بحثه (نهاية الحياة) المقدم الى ندوة الحياة الانسانية (في الكويت) : "ولا بد للحكم بموته من ان تنعدم كل امارات الحياة ، ويذكرون ذلك في استهلال المولود ليرث ، قالوا : لا بد ان ينفصل حيا حياة مستقرّة ، ولو مات بعد انفصاله حيا حياة مستقرّة فنصيبه لورثته .

ويعلم استقرار حياته عند الحنابلة والشافعية إذا استهل صارخا أو عطس أو تثاءب ، أو مص الثدي ، أو تنفس وطال زمن تنفسه ، أو وجد منه ما يدل على حياته كحركة طويلة ونحوها .

فلو لم تكن حياة مستقرة ،بل كالحركة اليسيرة ، أو الاختلاج والتنفس اليسير لم يرث ، لأنه لا يعلم بذلك استقرار حياته ، لاحتمال كونها كحركة المذبوح ، أو كما يقع للانتشار من ضيق أو استواء الملتوي))[3].

<u>تعريف الحياة المستقرة :</u>

ويعرف بدر الدين الزركشي في كتابه (المنثور من القواعد) الحياة المستقرة بقوله : ((الحياة المستقرة هي أن تكون الروح في الجسد ، ومعها الحركة الاختيارية دون الاضطرارية ، كما لو كان إنسان ، وأخرج الجاني

---

[1] الزرقاني علي الحليل : 112/2

[2] محمد المختار السلامي ، الانعاش ، مجلة مجمع الفقه الاسلامي الدورة الثالثة : 2/ 685 ، 1408هـ/ 1987م.

[3] محمد سليمان الأشقر ، نهاية الحياة ، ندوة الحياة الإنسانية ، الكويت ،ومجلة مجمع الفقه الإسلامي ، الدورة الثالثة ، 1987م:662/2.

أو حيوان مفترس حشوته وأبانها ، ثم جاء آخر فأجهز عليه لا يجب القصاص في هذه الحالة ، و أما حياة عيش المذبوح فهي التي لا يبقى معها إبصار ولا نطق ولا حركة اختيارية [1].

وقال الرملي في (نهاية المحتاج): وإن أنهاه (أي المجني عليه) رجل إلى حركة مذبوح بأن لم يبق فيه إبصار ونطق وحركة اختيار ، وهي المستقرة التي يبقى معها الإدراك ويقطع بموته بعد يوم أو أيام ، ثم جنى عليه الآخر ، فالأول قاتل ، لأنه صيره إلى حالة الموت ، ومن ثم أعطي حكم الأموات مطلقا ، ويعزّر الثاني لهتكه حرمة ميت [2].

ويعلق على تلك العبارات الدكتور محمد نعيم ياسين فيقول : ((وهذا الذي ذهب إليه الفقهاء في هذه المسألة يشير إلى أنهم اعتبروا فقدان الإحساس والحركة الاختيارية علامات تورث غلبة الظن بوصول المجني عليه الى مرحلة الموت ، وان الحركة الاضطرارية الصادرة من المجني عليه لا تعطي غلبة الظن ببقاء الروح في الجسد إذا كانت وحدها ، ولم تقترن بأي نوع من الإحساس أو الحركة الاختيارية ، وإلا لجعلوا القصاص من نصيب الجاني الثاني ، إذ يكون فعله القاتل واردا على جسد فيه روح . ولعلهم في هذا تأثروا بما قرره علماء الطائفة الأولى أمثال ابن القيم والغزالي من أن الروح ترحل عن جسد صاحبها في اللحظة التي يصبح فيها الجسد عاجزا عن الانفعال للروح بأي نوع من الإحساس والاختيار)) [3] .

<u>حركة المذبوح :</u>

قد أجمع الفقهاء على اعتبار حركة المذبوح . ولو أن حيوانا مفترسا أو شخصا قام بالاعتداء على آخر ، وأفقده النطق والإبصار والإحساس والإدراك ، ولم يبقى منه إلا ما يسمى حركة المذبوح ،ثم جاء آخر فأجهز عليه ، فإن القاتل الأول ، وإنما يعزّر الثاني لانتهاكه حرمة الميت . .

فمهما كان قلبه ينبض ، وهو يتنفس ويتحرك ، إلا أن هذه الحركات اضطرارية ، فلا يحكم له فيها بحياة .

بل وصل بعض الفقهاء الى ما هو أعجب و أغرب من ذلك . فقد زعم ابن القاسم أن عمر رضي الله عنه لما طُعن كان معدودا في الأموات ، وأنه لو مات له مورث لما ورثه ، وأنه لو قام رجل بالتذفيف على عمر فقتله ، لا يعتبر الثاني قاتلا ، لأن القاتل هو الأول ، وهو أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة . وقد استدلوا على موت عمر بزعمهم ذاك أن الطبيب سقى عمر لبنا فخرج اللبن من الجرح ، ومعنى ذلك أن الطعنة كانت نافذة حتى وصلت إلى الأمعاء أو إلى المعدة ، ومثل تلك الحالة لا تعيش في ذلك الزمن . ورغم أن عمر كان يتكلم ويعهد وبقي ثلاثة أيام على ذلك إلا أن ابن القاسم اعتبره في عداد الأموات [4] ، ولم يعتبر كلامه وإدراكه ومنطقه دليلا على الحياة باعتبار ما سيؤول إليه ، وهو الموت .

---

[1] بدر الدين الزركشي ، المنثور في القواعد : 105/2 .

[2] الرملي ، نهاية المحتاج :7 /15-16.

[3] محمد نعيم ياسين ، مجلة الفقه الإسلامي ، الدورة الثالثة : 635/2-660 .

[4] محمد المختار الإسلامي ، مجلة مجمع الفقه الإسلامي ، الدورة الثالثة : 685/2-694 .

والحق أن ما ذهب إليه ابن القاسم كان شططا ، ولم يقبله جمهور الفقهاء ، بل اعتبروا أن عمر كان لايزال حيا عندما كان يعهد ويتكلم ويدرك الأمور ، ولذا أمضوا وصيته [1].

مما سبق يتبين الآتي بالنسبة إلى الروح :

1 - أن دخول الروح إلى الجنين لا يتم إلا بعد مرور فترة زمنية تكون أعضاء الجنين قد تكونت والقلب ينبض (منذ اليوم الثاني والعشرين منذ التلقيح) والدورة الدموية موجودة ، ومع هذا فقد أجمع الفقهاء وعلماء الإسلام أن الجنين قبل نفخ الروح بمثابة الجسد ، ولا يحكم له فيها بالحياة الإنسانية التي فيها الإحساس والإدراك (وهي التي لا تظهر إلا بعد تكون الدماغ ، واتصال المناطق المخية العليا بالمناطق السفلى ، وذلك لا يكون إلا بعد مرور مئة وعشرين يوما منذ التلقيح كما اثبته الدكتور (كورين) في بحثه الرائد الذي ألقاه في مؤتمر (أخلاقيات زرع الأعضاء المنعقد في أتوا بكندا في 20-24 أغسطس-آب 1989م). حيث ذكر أن الاتصالات والتشابكات (SYNAPSIS) بين المناطق المخية العليا والمناطق الأسفل منها لا تبدأ إلا بعد مرور الجنين بفترة مئة وعشرين يوما ، كما سبق أن أوضحناه [2].

وحتى لو قلنا بفترة الأربعين التي وردت في حديث حذيفة بن أسيد ، وفي هذه الفترة يبدأ جذع الدماغ بالعمل ، واعتبرنا ذلك علامة على بداية الحياة ونفخ الروح ، فإن ذلك لا يغيّر من الحقيقة شيئا ، وهي أن الجنين يبقى فترة أربعين يوما لا يعتبر فيه حيا حياة إنسانية .

2 - تضافرت النصوص القرآنية والحديثية على أن آدم عليه السلام لم ينفخ فيه الروح الا بعد ان اكتمل بناء جسده من الطين ، وان ابليس اللعين كان يتعجب من خلقه ويصوت فيه قبل نفخ الروح ، ويقول : " لأمر ما خلقت " .

3 - أن أهم وظائف الروح هي العلم والادراك : يقول الامام الغزالي : الروح هي المعنى الذي يدرك من الانسان العلوم ، وآلام الغموم ، ولذات الافراح . والروح تؤثر في البدن الانساني ، وتتحكم فيه . والاعضاء آلات للبدن ، فإذا استعصت الاعضاء على عمل الروح ، فإن الروح تغادر البدن ، فكل الاعمال الاختيارية والادراك والاحساس من عمل الروح ، والابدان آلات للروح .

ولكن هذا لا يعني ان خروج الروح يستتبع فقدان كل حركة في الجسم ، وموت كل خلية فيه . فقد اتفق الفقهاء – كما اسلفنا – أن الجنين قبل نفخ الروح فيه كانت فيه حركة النمو والاغتذاء ، بل ان القلب ينبض ويعمل منذ اليوم الثاني والعشرين من التلقيح ، وتبدأ الدورة الدموية عملها منذ تلك اللحظة ، ومع هذا لم يقل أحد من علماء الاسلام : ان الروح قد نفخت في هذا الجنين في هذه الفترة ، بل اجمعوا او كادوا على ان نفخ الروح لا يكون الا بعد مرور مئة وعشرين يوما منذ بدء الحمل ، ولم يشذ عن ذلك الا فئة قليلة ، لم تحدد وقتا لنفخ الروح ، ولكنها اخذت بحديث حذيفة بن اسيد الذي رواه مسلم وحددت بالتالي بداية الحياة بعد مرور الاربعين الاولى .

---

[1] الزركشي ، المنثور في القواعد : 105/2 ، وزارة الأوقاف ، الكويت ، 1982م .

[2] ص(19).

وقد اسلفنا القول في ان الفقهاء لم يحكموا بحياة الجنين حتى بعد مولده وانفصاله حيّاً من امه الا اذا استهلّ صارخا ، او ظهرت عليه امارات الحياة .

ومنهم من لم يقبل التنفس ما لم يستمر وقتا طويلا

وكذلك لم يقبلوا الحركة دليلا على الحياة ، بل ولا البول ، لان ذلك يكون من استرخاء المواسك (العضلات العصارة) ، وبالغ بعضهم في عدم قبول العطاس والرضاع دليلا على الحياة كما اسلفنا .

وأما حركة المذبوح او من اعتدى عليه وحش او انسان حتى فقد الادراك ، والنطق ، والبصر ، والاحساس ، فإن حركته لا اعتبار لها عند الفقهاء ، واعتبروه ميتا ، رغم ان قلبه لا يزال ينبض ، ودورته الدموية لا تزال كاملة ، ومعظم اعضاء جسمه لا تزال تعمل .

4 - اتفق الفقهاء جميعا على ان حركة المذبوح ليست دليلا على الحياة ، وان الحركات الاضطرارية (الافعال الانعكاسية من الجسم) التي لا اختيار فيها ليست اثرا من أثر الروح .

ورغم وجود هذه الحركة فإن فقد كل احساس وادراك مع فقدان النطق والارادة عند هؤلاء الفقهاء دليل على فقدان الحياة .

يقول الدكتور محمد نعيم ياسين في بحثه (نهاية الحياة الانسانية في ضوء اجتهادات الفقهاء) تحت خلاصة تصور علماء الشريعة عن الروح وعلاقتها بالجسد : " ان الانسان – في تصورهم – جسد وروح ، ولا يكتسب الوضعية الانسانية بواحد من العنصرين دون الاخر ، وان الجسد مسكن الروح في هذه الدنيا طوال فترة الحياة المقررة للإنسان ، وان العلم والادراك والحس والاختيار اهم وظائف الروح ، وان الجسد الانساني لا يصدر عنه أي نشاط اختياري في هذه الدنيا بغير امر الروح ، وأن كل ما يصدر عنه هو بتأثيرها الذي اودعه الله فيها ، وان الموت معناه مفارقة الروح الجسد ، وانه يحصل عنده صيرورة الجسد عاجزا عن انفعال الروح ، وان وجود أي نوع من الحس والادراك والحركة الاختيارية يدّل على بقاء الروح في الجسد ، وغياب هذه المظاهر غيابا كاملا يدل لى مفارقة الروح الجسد ، وان مجرد وجود حركة اضطرارية لا معنى له سوى بقايا الحياة المجردة عن معيّة الروح"[1].

وفي موضع آخر من بحثه يقول الدكتور محمد نعيم ياسين : " ويفهم من ذلك ان علماء المسلمين يرون ان الحركة الاضطرارية التي لا اختيار فيها ليست اثرا من آثار الروح .

ومقتضى ما تقدم من تصورهم لوظائف الروح ان الحركة الاضطرارية الناشئة عن هذا النوع من الحيا ة ليس فيه دلالة على وجود الروح ".

ثم يلخص الباحث الفاضل الى محاولة الجمع ما بين اقوال الاطباء والفقهاء من اتفاق واختلاف ، وهذا الذي سنذكره فيما بعد عند الانتهاء من تشخيص الموت وعلاماته عند الفريقين .

---

[1] محمد نعيم ياسين ، نهاية الحياة الانسانية في ضوء اجتهادات الفقهاء ، ندوة الحياة الانساني ، الكويت ، ومنشورة ايضا في مجلة مجمع الفقه الاسلامي ، العدد (3): 2/635-660

وما يهمنا ها هنا هو التأكيد على ان الفقهاء لم يجعلوا الحركة الاضطرارية دليلا على وجود الروح ، بل على العكس من ذلك . كما انهم لم يجعلوا انتظام نظم القلب وضرباته ووجود الدورة الدموية في الجنين دليلا على نفخ الروح فيه ، بل اعتبروا ذلك كله بمثابة النبات او الحيوان ، وليس فيه أي دليل على نفخ الروح في الجنين .

وقد أخبر المعصوم صلى الله ليه وآله وسلم عن موعد هذه النفخ ، وأنه لا يكون الا بعد مرور الجنين بمراحل متعددة ، ابتداء من النطفة، ومرورا بالعلقة والمضغة والعظام واللحم الذي يكسو العظام ، ووجود أمارات التخليق ، ووجود الاعضاء المختلفة من كبد وقلب ورئة وكلى .

ومع أن الدورة الدموية والقلب يبدأ عملهما مبكرا جدا (في اليوم الثاني والعشرين من التلقيح) الا ان الفقهاء لم يعيروا ذلك اهتماما لوجود النص ، واتفق جمهور الفقهاء وعلماء الشريعة والعلوم الدينية على ان نفخ الروح لا يكون الا بعد وصول الجنين الى اليوم العشرين بعد المئة .

وهذا دليل قوي على عدم اعتبارهم الدورة الدموية دليلا على وجود الروح ، اذ يمكن ان تكون هناك دورة دموية كاملة ، والقلب ينبض دون وجود الروح ، وهذا بالضبط ما يقوله الاطباء ، حيث ان القلب يمكن ان يستمر في النبض والدورة الدموية بمساعدة العقاقير والاجهزة وبوجود منفسة تقوم بعملية التنفس ، ولا يعد الشخص في تلك الحالة حيّا ، بل هو ميت اذا مات دماغه بشروط معيّنة ، لا بد من توافرها في تشخيص موت الدماغ .

علامات الموت وتشخيصه عند الفقهاء:

لقد قرر علماء الشرع ان الموت هو مفارقة الروح الجسد الى ما أعدّ لها من عذاب او نعيم ، حسب عملها في هذه الدنيا ، وان الموت هو انتقال من دار الى دار ، وليس عدما محضا ، فالروح باقية ، لكنها لم تعد تستطيع التصرّف في هذا الجسد .

والروح امر غيبي لا نستطيع ان ندرك كهنه ، قال تعالى : {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** }[الاسراء : 85] ، وقد قال الامام الشوكاني في تفسير قوله تعالى : {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** } الآية : وقد اختلف الناس عن المسؤول عنه ، فقيل : هو الروح المدبّر للبدن ، الذي تكون به حياته ، وبهذا قال اكثر المفسرين . قال الفرّاء : الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله سبحانه به احدا من خلقه ، ولم يعط علمه احدا من عباده .. وانتهى الامام الشوكاني الى ان الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه .

لهذا كله بحث الفقهاء عن العلامات التي تمكنهم من معرفةالموت ، وقد استدلّ الفقهاء على الموت ببعض الامارات وببعض الاحاديث النبوية نذكرها كما جاءت في بحث فضيلة الدكتور (بكر أبو زيد) رئيس مجمع الفقه الاسلامي بشيء من الاختصار[1]:

[1] بكر ابو زيد ، الانعاش وحقيقة الوفلة بين الفقهاء والاطباء ، مجلة مجمع القه الاسلامي ، العدد (3) : 3/529-541

1 - عن أم سلمة رضي عنها ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " ان الروح اذا قبض اتبعه البصر " أخرجه مسلم .

2 - عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " اذا حضرتم موتاكم فاغمضوا البصر ، فإن البصر يتبع الروح وقولوا خيرا ، فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت " أخرجه أحمد في مسنده .

علامات الموت :

علامات الموت هي : انقطاع النفس ، واسترخاء القدمين ، وعدم انتصابهما ، وانفصال الكفين ، وميل الانف ، وامتداد جلدة الوجه ، وانخساف الصدغين ، وتقلص الخصيتين الى فوق ، متدلي الصفن ، وبرودة البدن .

فإن حدث شك أو مات الشخص فجأة ، فعلى المشخص الانتظار حتى تتبين العلامات .

وقال الامام النووي في (روضة الطالبين)[1] : " فإن شك بأن لا يكون به علة ، واحتمل ان يكون به سكتة ، او ظهرت أمارات فزع ، أخرّ الى اليقين بتغير الرائحة أو غيره " .

" وفي حالات الموت بالسكتة والصعقة ، والخوف والسقوط ونحوها مما قد ينتج عنه الموت المفاجئ ، يطلب الفقهاء أن ينتظر بالميت احتياطا ، حتى تظهر به العلامات المعتبرة في غير هذه الاحوال من استرخاء الرجلين وانخساف الصدغين الى اخره ليتحقق الموت "[2].

ولا شك ان هذه العلامات ليست يقينية ما عدا توقف التنفس توقفا نهائيا لا رجعة فيه . ولذا اعترف الفقهاء انفسهم انهم كانو يشخصون الموت في حالات لم تمت بعد ، حتى قال ابن عابدين في (الحاشية) : " ان أكثر الذين يموتون بالسكتة يدفنون وهم احياء " لأنه يعسر ادراك الموت الحقيقي الا على افاضل الاطباء[3] .

وقد نقلنا كلام فضيلة مفتي تونس العلامة الشيخ محمد المختار السلامي في حكم الفقهاء على الجنين الذي لم يستهل صارخا ، وكيف انهم اعتبروه ميتًا... وكم من ملايين الاطفال عبر ألف عام او تزيد حكم عليهم الفقهاء بالموت ، لانهم لم يستهلوا حياتهم صارخين ، بل ان بعضهم لم يعترف بالتنفس ولا بالعطاس ولا بالرضاع !! وإليك ما قالوه مرة اخرى : يقول خليل : (ولا سقط ما لم يستهلّ صارخا ، ولو تحرك أو بال أو رضع !!) ؟!!

---

[1] روضة الطالبين ، للنووي : 98/2

[2] محمد الاشقر ، مجلة مجمع الفقه الاسلامي ، العدد (3) :672-661/3

[3] حاشية ابن ابدين : 572/1

ولا شك ان علامات الفقهاء للموت ستؤدي الى كارثة حقيقية اذا اخذنا بها . ولا شك ان الآلاف سيحكم عليهم بالموت وهم احياء حسب هذه التعريفات الفقهية للموت .. وقد ادت تعريفات الموت عند الفقهاء الى دفن آلاف بل ملايين الاطفال الذين لم يستهلوا صارخين وهم احياء ، كما أدت الى دفن آلاف ومئات الآلاف من الاشخاص الذين اصيبوا بالسكتة ، وكما قال القيم ابن عابدين فإن أكثر الذين يموتون بالسكتة يدنون وهم أحياء .

ولهذا فإن تشخيص الموت لا يترك للفقهاء ولا لعامة الناس ، وقد تنبهت الحكومات في العالم أجمع الى ذلك ، فأوكلت تحديد الحياة بدءا وانتهاء الى اهل الذكر في هذا المجال وهم (الأطباء) وقد قال الله تعالى : { **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** }[النحل : 43] .

ومن الخطورة بمكان ان نأخذ بهذه العلامات البسيطة التي كان الفقهاء يأخذون بها ، ويعتبرونها علامة للموت مثل : استرخاء القدمين ، انفصال الكفين ، وميل الانف ، وامتداد جلدة الوجه ، وانخساف الصدغين ، وتقلص الخصيتين الى فوق ، مع تدلي الصفن ، وبرودة البدن . فهذه العلامات جميعا ليست علامة للموت ، بل ان توقف التنفس لديهم وهو علامة هامة للموت قد يكون عارضا ، ويمكن انقاذ المصاب به .. وقد لا يكون علامة للموت الا اذا استمر وقتا كافيا مع فقدان الوعي فقدانا تاما ، وتوقف عمل الجهاز العصبي المركزي ، وبالذات عمل الدماغ بأكمله ، شاملا بذلك جذع الدماغ ، الذي فيه المراكز الحيوية الهامة التي تتحكم في التنفس والدورة الدموية والوعي .

والغريب حقا ان الفقهاء لم يوضحوا كيفية الاستدلال على توقف التنفس ، كما انهم لم يعرفوا اهمية الدورة الدموية ونبض القلب ، ولم يذكرها احد منهم في تعريفهم لعلامات الموت سوى ما ذكره فضيلة القاضي بحكمة قطر الشرعية الأولى الشيخ عبد القادر العماري في بحثه (نهاية الحياة)من أن بعض الفقهاء المتأخرين اعتبر جس العرق الذي بين الكعب والعرقوب وجس العرق في الدبر[1] .

وحتى هذه العلامات لا تعتبر علامة على الموت، إذ أن المصاب بعض أمراض الدورة الدموية يفقد النبض من الشريان الموجود بين الكعب والعرقوب (الشريان الخلفي) (posterior Tibial Artrey).

ولم يكتفِ الفقهاء بذلك كله بل تحدثوا عن الموت حكما والموت تقديرا ، وقسّموا الموت إلى حقيقي : وهو انعدام الحياة إما بالمعاينة (وهو ما تحدثنا عنه يما سبق) أو بالسماع أو بالبينة ،وإلى حكمي :وهو أن يحكم القاضي بموت شخص مع احتمال حياته ، ومثاله المفقود ، أو مع تيقن حياته ،ومثاله المرتد الذي فرّ إلى أرض الكفار أهل الحرب . فهؤلاء جميعا تعتد زوجاتهم عدة الموت ، ويجوز لهن الزواج .. وتقسم التركة بالنسبة للمفقود ، أما المرتد فلا يرثه أهله ،بل تأخذ الدولة ماله [2] .

---

[1] عبد القادر العماري ، مجلة الفقه الاسلامي ، العدد (3) : 189/2 وما بعدها

[2] وهبة الزحيلي ، الفقه الإسلامي وأدلته ، دار الفكر ، ط2 : 253/2 .

والموت التقديري هو إلحاق الشخص بالموتى تقديرا . وذلك في الجنين الذي انفصل بجناية على أمه ، وهي التي توجب الغرة (تقدر بـ 5% من دية الإنسان أو 50 دينار ذهبا) بأن يضرب الشخص امرأة حاملا فتلقي جنينا ، فتجب الغرة ، وهي عبد أو أمة ، وتقدّر بنصف عشر الدية الكاملة .[1] .

أنواع حركة المذبوح :

فرّق الفقهاء بين من وصل إلى حركة المذبوح نتيجة عدوان أو افتراس ، وبين من وصل إليها نتيجة مرض ، فإن من وصل إلى حركة المذبوح نتيجة مرض لا تسري عليه أحكام الموت ، ولا تقسّم تركته ، ولا تنكح زوجته ، ويلزم قاتله القصاص . قال النووي في (المنهاج) : ولو قتل مريضا في النزع وعيشه عيش مذبوح وجب بقتله القصاص [2] . قال الشارح : لأنه قد يعيش بخلاف من وصل بالجناية إلى حركة المذبوح .

قال العلامة عميرة في حاشيته على (منهاج الطالبين): ((وعبارة الإمام(أي النووي) لو انتهى إلى سكرات الموت ، بل يلزم قاتله القصاص [3] .

وقال الزركشي في (المنثور في القواعد): إن المريض لو انتهى إلى سكرات الموت ، وبدت مخايله ، لا يحكم له بالموت ، حتى يجب القصاص على قاتله [4] .

<u>تعليل الاختلاف في الحكم :</u>

ويقول الدكتور محمد نعيم ياسين في تعليل هذا الاختلاف في الحكم بين حالتين متماثلتين : والذي يظهر أن الفرق الذي ذكره الزركشي بين الصورتين غير مؤثر في اختلاف الحكم ، ويدّل على ذلك ما صرّح به نفسه ، وصرّح به غيره من علماء الشافعية ، فيما نقلناه سابقا ، من أن صاحب الفعل الأول لو كان حيوانا مفترسا وأخرج حشوة المقتول وأبانها ، فإن القتل لا يضاف إلى أي صاحب فعل لاحق مهما كان .

وإضافة الفعل الأول إلى الحيوان المفترس لا يختلف من حيث النتيجة عن إضافته إلى أي حادث سماوي يوصل الشخص إلى النتيجة نفسها ، كانهيار بيت عليه مثلا ونحو وذلك .

ولكن المعنى المعقول الذي يمكن أن يفرّق بين الصورتين هو مدى التحقيق من وصول الشخص إلى الحياة غير المستقرّة التي يتيّقّن من عدم إمكان انعكاسها إلى الحياة المستقرّة . ومظاهر النزع في عهد أولئك الفقهاء لم تكن كافية لتغليب الظن ، فضلا عن التيقّن ، على أن المريض قد انتقل فعلا إلى مرحلة عيش المذبوح – كما سمّوه – بدليل أن حالات كثيرة يوصف فيها الشخص بأنه وصل إلى حالة النزع الأخيرة ، ثم يتجاوزها ، ويعيش إلى ما شاء الله .

---

[1] المصدر السابق نفسه .

[2] منهاج الطالبين ، للنووي :103/4- 104 .

[3] المصدر السابق نفسه .

[4] الزركشي ، المنثور في القواعد :106/2 .

وإذا كان هذا هو الفرق الحقيقي بين الصورتين السابقتين ، فإنه لا يؤثر على فهمنا السابق لموقف الفقهاء ، من تحديد زمن الوفاة في مسألة الاشتراك على التتابع في جريمة القتل بل يؤيده [1]. انتهى.

ومقتضى كلام الدكتور محمد نعيم ياسين أنه لا فرق بين من وصل الى حركة المذبوح نتيجة افتراس وحش ، او اعتداء انسان ، أو حادث سيارة، أو هدم ،أو غيرها من الحوادث ، أو نزف في الدماغ لأي سبب كان ، اذا أمكن التيقّن من التشخيص ، وأن المصاب قد وصل فعلا الى حركة المذبوح ، وهو من فقد الادراك والنطق والاحساس والابصار ، ولم تعد له حياة مستقرّة ، وإن كان قلبه ينبض والدم يجول في عروقه ، وكثير من اعضائه لا يزال يعمل ، بل لا يزال يتنفس من دون منفسة ولا آلة **!!**

فإذا كان الفقهاء قد حكموا على مثل هذا الشخص بالموت ، وهو ما لا يجرؤ الاطباء فعله ، فإن تشخيص موت الدماغ بمواصفات الاطباء اليوم أشد بكثير من مواصفات الفقهاء في تعريف الحياة غير المستقرّة وحركة المذبوح وما شاكل ذلك .

مفهوم الموت عند الاطباء:

لا شك ان الروح أمر من أمور الغيب ، قال تعالى : { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** }[الاسراء : 85] ، وبما ان الاطباء مثل غيرهم من البشر ، لا يعرفون شيئا عن كنه الروح ، فإنهم بالتالي لا يستطيعون ان يفهموا حقيقة الموت ،فإن الذي لا يعرف سرّ الحياة لا يعرف سرّ الموت ، كما أشار الى ذلك الامام الغزالي .

ويعرّف الفقهاء كما اسلفنا الموت بأنه مفارقة الروح الجسد ، وبما ان الاطباء لا يستطيعون ان يدركوا من امر الروح شيئا سوى ما تدلهم عليه النصوص ، او اجتهادات الفقهاء ، فإنهم مثل الفقهاء ، اتخذوا علامات تدلّ على الموت .. ولا شكّ ان علامات الموت عند الاطباء أدّق وأصدق من تلك العلامات التي اتّخذّها الفقهاء ، والتي وقفنا عندها طويلا ، وأوضحنا مدى الاضطراب وعدم الوثوق فيها ، حيث يشخّصون ويعتبرون الانسان ميتا وهو لا يزال حيا ، نتيجة قصور معلومات زمنهم في هذا الباب.

والموت عند الاطباء هو نهاية الحياة في البدن الانساني ، ولا يعني ذلك موت كل خلية فيه .

وقد جاء في تقرير الاجتماع العالمي الثاني والعشرين للأطباء المنعقد في سدني في استراليا عام 1968م : " ان الموت عملية متدرجة على مستوى الخلايا ، وان الأنسجة تختلف في مدى قدرتها على تحمل انقطاع الاوكسجين (بحيث تموت خلايا الدماغ بعد اربع دقائق فقط من انقطاع التروية الدموية ، بينما يمكث الجلد والقرنية والعظام فترة تتراوح ما بين اثنتي عشرة ساعة واربع وعشرين ساعة من دون تبريد ، كما يمكن تبريد الخلايا والانسجة وإبقاؤها حية عشرات السنين ، وكذلك اللقيحة ، والخلايا المولدة لليفين (Fibroblasts).

---

[1] محمد نعيم ياسين ، نهاية الحياة الإنسانية في ضوء اجتهادات الفقهاء ، ندوة الحياة الإنسانية ، الكويت ، ومجلة مجمع الفقه الإسلامي ، العدد(3): 635-660 .

ولكن الموت ليس مجرد موت خلايا ، أو الاحتفاظ بها حية في ظروف معينة ، وإنما هو موت الانسان ككل ، وبالتالي عدم القدرة على الاحتفاظ بخلايا جسمه حيّة ، وهي نقطة اللاعودة ، مهما بذل الاطباء من محاولات الانقاذ والاسعاف ، وسير الجسم في طريق التحلل والانتهاء[1] .

ويعرّف (قاموس أوكسفورد) الموت بطريقتين : عملية الموت (الاحتضار) أو ان الشخص قد مات فعلا . ومن المعلوم ان كثيرا من خلايا الميت وأنسجته تبقى حية لفترة محدودة بعد موت الشخص ككل .

وقد لاحظ الأوربيون منذ أزمنة طويلة نمو الشعر بعد الوفاة (يحلقون شعر الميت ويلبسونه أفضل ثيابه ، ويبقى أياما قبل دفنه) كما أنهم قد لاحظوا استطالة أظافره بعد قلمها . كما أن العظم والاوعية الدموية يمكن زرعها في شخص آخر بعد موت الشخص بثمان وأربعين ساعة (من دون تبريد) وكذلك يبقى الجلد والقرنية صالحين للزراعة لمدة 24 ساعة (من دون تبريد) . وهذا يعني ببساطة أنها لا تزال حية وتستطيع العمل[2]

ويقول الدكتور عصام الشربيني في بحثه المقدم الى ندوة (الحياة الانسانية) : ان الموت ليس نقطة واحدة أو خطأ رفيعا ، ولكنه عملية لها امتداد يطول او يقصر ، والناس من قديم يعرفون ان فلانا دخل مرحلة الموت ، أو بدأ عملية الموت ، أو في حالة الاحتضار ، وتتحدث كتب السنة عما يسنّ عند الاحتضار ، وربما كان اللفظ مأخوذا مما في الكتاب الكريم{**أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ**}[البقرة : 133] . وقوله تعالى : {**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**}[البقرة : 180] ، ثم يقول : فالجسم مجموعة من الخلايا والاعضاء والاجهزة ، يقوم كل منها بوظيفتها ، ولها متطلبات لأداء هذه الوظائف من غذاء أو طاقة أو وسط يحيط بها في توازن دقيق ، ويعتمد كل منها في ذلك على الآخر ، فإذا اختلت وظيفة عضو أثر ذلك على أداء الأعضاء الأخرى لوظائفها بدرجات متفاوتة ، كما جاء في تشبيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين بالجسد : " إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " أخرجه مسلم .

والخلل اذا لم يتوقف تداعى إليه عضو بعد عضو ، حتى يحدث الموت[3]

والغريب حقا ان الفقهاء وعلماء الدين عندما حددوا الموت بخروج الروح من البدن ومفارقتها له جعلوا من صفات ذلك فقدان القدرة على الادراك والاحساس والنطق والحركة الذاتية ، وان بقي الشخص يتنفس أو يجول الدم في عروقه ، وينبض قلبه ، وذلك فيما أسموه حركة المذبوح .

واعتبروا ذلك الشخص ميتا وتسري عليه أحكام الموت إذا كان سبب وصوله لحركة المذبوح اعتداء شخص على حياته ، او افتراس وحش أو حادثا سماويا ، مثل هدم أو سقوط في حفرة أو حادث مروري .

---

[1] Pallis C: ABC of Brain Stem Death,B.M.J 1983: Reaprising Death 1- 4

[2] المصدر السابق

[3] عصام الشربيني ، الموت والحياة بين الأطباء والفقهاء ، ندوة الحياة الانسانية ، الكويت ، ومنشورة في مجلة مجمع الفقه الاسلامي ، العدد (3) : 587-573/2.

والعجيب حقا أن يقوم الأستاذ الدكتور كريستوفر باليس (Christopher Pallis) في كتابه (أبجديات موت جذع الدماغ) بتعريف الموت بأنه : فقدان الادراك والاحساس والقدرة على الحركة الارادية بالاضافة الى فقدان تام لا رجعة فيه للقدرة على التنفس[1] .

ولا شك ان تعريف الدكتور باليس أدق وأضبط في هذه الناحية من تعريفات فقهائنا الأجلاء ، إذا إنهم أهلملوا في هذه النقطة : موضوع النفس والتنفس ، مع انهم انتبهوا له في مواضع أخرى ، حتى قال بعضهم : إن النفس هي النَفَس وهي النسيم الداخل والخارج من الرئتين .

ولا شك ان الجمع بين التعريفين هو الصواب ، وهو فقدان الادراك والاحساس والارادة والحركة الذاتية ، بالاضافة الى فقدان القدرة على التنفس .. وينبغي ان يكون كلاهما قد فقد الى غير رجعة .

علامات الموت عند الاطباء :

يعد توقف التنفس والقلب والدورة الدموية توقفا لا رجعة فيه علامة هامة وأساسية وفارقة بين الموت والحياة . وبما ان القلب يضخ الدم المحتوي على الاوكسجين (الذي سماه القدماء الروح الحيواني والبخار الذي تنضجه حرارة القلب) الى كل خلية في الجسم ، ولا تموت هذه الخلايا دفعة واحدة ، بل بالتدريج ، وأولها موت خلايا الدماغ التي تموت بعد انقطاع التروية الدموية عنها بأربع دقائق فقط ، وتوقف القلب وحده دون توقف الدورة الدموية لا يعني الموت .

ولكي نزيد المفهوم وضوحا فإن توقف القلب في العمليات الجراحية التي تجرى للقلب (عمليات القلب المفتوح) لا تعني ان هذا الشخص قد مات ، رغم ان قلبه يوقف اثناء العملية لمدة ساعتين أو أكثر ، والسبب هو ان وظيفة القلب تقوم بها مضخة تضخ الدم الذي يتجمع من الوريد الاجوف السفلي ، والوريد الاجوف العلوي ، بعد ان يمر في جهاز يقوم بوظيفة الرئة ، ثم يعاد الى الشريان الابهر (الأورطي) الذي بدوره يوزع الدم على بقية اعضاء الجسم .

وفي هذه الحالات ورغم ان القلب متوقف ، والتنفس متوقف ، إلا ان الشخص حي بكل تأكيد ، وذلك لان الدورة الدموية لم تتوقف ، ولو لثوان معدودة ، والدماغ يتلقى التروية الدموية دون انقطاع ، ووظيفة الرئتين تقوم بها آلة أخرى تأخذ ثاني أوكسيد الكربون من الدم وتعطيه الاوكسجين ، وهذا المثال يوضح ان القلب رغم أهميته البالغة للإنسان إلا أنه يمكن الاستغناء عنه لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات أو أكثر بواسطة آلة تقوم مقامه ، وكذلك الرئتين .

ويمكن كذلك استبدال هذا القلب التالف بقلب شخص آخر (توفي دماغيا) ، أو حتى بقلب حيوان آخر .. ولو لا عمليات الرفض للجسم الغريب لأمكن استخدام القلوب من الحيوانات لزرعها في الانسان ، ولكن عمليات الرفض الشديدة تجعل هذه العملية محفوفة بالمخاطر ، وهناك تجارب متعددة على قلوب الحيوانات (وبالذات الخنزير) ومحاولة تغيير جهازها المناعي بتطعيمها بجينات إنسانية ، وسيتضح مدى نجاح أو فشل هذه التجارب خلال السنوات القليلة القادمة . كما ان هذا القلب التالف يمكن استبداله بقلب صناعي ، وقد

[1] د. باليس : أل باء موت جذع الدماغ مجلة BMJ 1983م، ص 1-4

تمكن طبيب الاسنان الدكتور (بارنيه كلارك) من البقاء بقلب صناعي لمدة أشهر عدة بعد أن نزع قلبه ، ووضع بدلا منه قلب صناعي ، وذلك عام 1982 . وعاشت الطفلة (فاي) بقلب قرد لأكثر من اسبوع .

لهذا ينبغي ان ندرك انه حتى في الحالات التي يعلن فيها الموت بسبب توقف القلب والدورة الدموية والتنفس ، الا ان السبب الأول في الوفاة هو انقطاع التروية الدموية عن الدماغ ، لهذا إذا أمكن مواصلة التروية الدموية للدماغ حتى مع توقف القلب فإن هذا الشخص يعد حيّ .

ولكن العكس غير صحيح . أي إذا تهشم الدماغ وبالذات جذع الدماغ الذي فيه المراكز الحيوية (اليقظة ، التنفس ، التحكم في الدورة الدموية) ومات موتا لا رجعة فيها ، فإن الانسان يعّد ميتا رغم ان قلبه لا يزال ينبض بمساعدة العقاقير ، وبعض الأجهزة ، وتنفسّه لا يزال مستمرا بواسطة المنفسة (الآلة) . وهذا هو بالضبط ما نعبّر عنه بموت الدماغ .

موت الدماغ :

ان موت الدماغ هو موت الدماغ بما فيه من المراكز الحيوية الهامة جدا ، والواقعة في جذع الدماغ ، فإذا ماتت هذه المناطق فإن الانسان يعد ميتا ، لأن تنفسه بواسطة الآلة (المنفسة) مهما استمر لا قيمة له ، ولا يعطي الحياة للإنسان . وكذلك استمرار النبض من القلب ، بل وتدفق الدم في الشرايين والاوردة (ماعدا الدماغ) لا يعد علامة على الحياة ، طالما ان الدماغ قد توقفت حياته ودورته الدموية توقفا تاما لا رجعة فيه .

وهذا يشبه تماما ما يحدث عندما تقوم الدولة بتنفيذ حكم الله في القصاص ، أو قتل المفسدين في الارض من مهربي وتجار المخدرات ، في هذه الحالة يضرب السياف العنق ، فتتوقف الدورة الدموية عن الدماغ ، ويموت الدماغ خلال دقائق معدودة (ثلاث او اربع دقائق) . بينما يبقى القلب يضخ الدم لمدة 15 الى 20 دقيقة ، ويتحرك المذبوح ، وهو امر نشاهده عند ذبح الدجاجة أو الخروف ، ولكن هذه الحركة ليست بذاتها دليلا على الحياة ، طالما ان الدماغ قد مات .

والامر ذاته يحدث في الشنق . وعندما يشنق الانسان ، تتوقف الدورة الدموية عن الدماغ ، بينما يستمر القلب في الضخ لمدة دقائق ، قد تبلغ ربع ساعة الى ثلث ساعة ، لا شك ان هذا الشخص قد مات في هذه الفترة ، رغم ان قلبه مازال ينبض ، وذلك لان الدورة الدموية انقطعت عن الدماغ ، وقد مات الدماغ بالفعل .

اسباب موت الدماغ :

ان اهم اسباب موت الدماغ تتلخص في الآتي :

1 - اصابات الدماغ بسبب الحوادث ، وأهمها حوادث المرور ، وهذه الحوادث تمثل (50%) في جميع حالات موت الدماغ ، وفي المملكة العربية السعودية تمثل حوادث المرور (60%) من جميع وفيات الدماغ[1]

2 - نزف داخلي بالدماغ بمختلف اسبابه، وهو يمثل حوالي (20%) من جميع حالات موت الدماغ .

3 - اورام الدماغ ، والتهاب الدماغ ، وخراج الدماغ ، والسحايا ، تمثل حوالي (20%) من حالات موت الدماغ .

نكرر القول بأن اهم سبب لموت الدماغ هو حوادث السيارات ، وللأسف فإن أغلبية المصابين هم من الشباب ، زهرة هذه الامة وأهم مصادر ثروتها .

تشخيص موت الدماغ :

يتم تشخيص موت الدماغ حسب الشروط الطبية المعتبرة واهمها :

1 - وجود شخص مغمى عليه اغماءا كاملا .

2 - لا يتنفس الا بواسطة جهاز المنفسة .

3 - تشخيص لسبب هذا الاغماء ، يوضح اصابة أو مرضا في جذع الدماغ أو في الدماغ كله .

4 - عدم وجود أسباب تؤدي الى الاغماء المؤقت ، مثل تعاطي العقاقير ، أو الكحول ، أو انخفاض شديد في درجة حرارة الجسم ، أو حالات ارتفاع شديد ي سكر الدم ، أو انخفاض شديد في سكر الدم ، أو غير ذلك من الاسباب الطبية المعروفة التي يمكن معالجتها .

5 - ثبوت الفحوصات الطبية التي تدل على موت جذع الدماغ وتتمثل في الآتي :

أ - عدم وجود الأفعال المنعكسة من جذع الدماغ .

---

[1] وتعد حوادث المرور ي المملكة ومنطقة الخليج صاحبة الرقم الاعلى في العالم ، وتبلغ عشرة اضعاف ما هو موجود في الولايات المتحدة و اوربا بالنسبة لكل مئة الف من السكان . وفي عام 1994 م وعام 1995 م توفى في السعودية في كل واحد منهما اكثر من (3700) شخص ، اغلبيتهم المطلقة كانت تحت سن الاربعين (اكثر من 75% من جميع الحالات) ، كما اصيب في حوادث المرور اصابات بالغة ادت الى دخول المستشفى اكثر من (35000) شخص في كل عام ، ويتوفى في المستشفى كل عام حوالي (4000) شخص نتيجة الحوادث المرورية ، بالاضافة الى (4000) شخص يموتون مباشر بعد الحادث، ولا يصلون الى المستشفى الا بعد مفارقتهم الحياة .وهذه ارقام مرعبة جدا ، وتسبب الاعاقة وإضاعة أثمن واغلى ثروة لدى الامة وهي الشباب . ان هذه الاصابات المروعة ينبغي ان تواجه بحزم ومعالجة جذرية لاسباب هذه الاصابات ، وأهمها السرعة الجنونية وعدم استخدام حزام الامان والاستهتار وقطع الاشارات الضوئية ... الخ . ولا بد من عقوبات زاجرة رادعة ، حتى يمكن ان نخفض هذا النزف في قدرات الامة وفي شبابها وفي ثرواتها.

ب -عدم وجود تنفس بعد ايقاف المنفسة لمدة عشر دقائق بشروط معينة ، منها : استمرار دخول الاوكسجين بواسطة انبوب يدخل الى القصبة الهوائية ومنها الى الرئتين ، وارتفاع نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الدم الى حد معين (أكثر من 50مم من الزئبق في الشريان).

6 -فحوصات تأكيدية ، مثل رسم المخ الكهربائي (EEG) وعدم وجود أي ذبذبة فيه ، أو عدم وجود وجود دورة دموية بالدماغ بعد تصوير شرايين الدماغ ، أو بفحص المواد المشعة أو غيرها من الفحوصات الحديثة .

7 -ينبغي أن يعاد الفحص مرة أخرى بعد مرور فترة زمنية تختلف حسب الحالة ، وحسب عمر المصاب ، وهي تتراوح ما بين ست ساعات للبالغين ، وثمان وأربعين ساعة (للأطفال أقل من شهر) .

ماذا بعد تشخيص موت الدماغ :

إذا كان هناك اشتباه في موت الدماغ يتم ابلاغ المركز السعودي لزرع الاعضاء ، وإذا تم التشخيص والتأكيد منه بواسطة الفريق الطبي المختص ، يتم ابلاغ أهل المصاب ، ويحاول فريق المركز السعودي لزراعة الاعضاء التفاهم مع الاهل في أن يأذنوا باستقطاع بعض الاعضاء الحيوية من متوفاهم ، لينقذوا بذلك مرضى أوشكوا على حافة الخطر ، وأحدق بهم الموت . فإذا أذن الأهل بذلك يتم استقطاع الاعضاء الحيوية ، مثل : القلب ، الكلى ، الكبد . وتزرع كل واحدة منها في شخص معين يعاني من مرض خطير ، وفشل لوظيفة ذلك العضو .

وقد استطاعت المملكة العربية السعودية ان تكون سباقة في هذا المجال ، حيث تم حتى نهاية 1422هـ - 2001م زرع (1210) كلى من متوفين دماغيا ، كما تم زرع (90) قلبا ، (247) صماما قلبيا ،و(215) كبدا ، وثلاث حالات زرع بنكرياس ، و (402) زرع قرنية ، و (10) عمليات زرع رئة بالاضافة الى (2186) عملية زرع كلى من متبرعين احياء أقارب ، وزرع (35) كبدا من متبرعين أحياء أقارب.

أما إذا رفض الأهل الموافقة على التبرع ، فإن الاطباء ينبغي أن يوقفوا المنفسة ، وفي خلال دقائق يتوقف القلب والدورة الدموية .

وقد أفتى مجمع الفقه الاسلامي في دورته الثالثة المنعقدة في عمان – الاردن 1407هـ/1986م حيث قرر المجمع ان الشخص يعتبر ميتا اذا تبينت فيه احدى العلامتين التاليتين :

1 -اذا توقف قلبه وتنفسه توقفا تاما ، وحكم الاطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه .

2 -اذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلا نهائيا ، وحكم الاطباء الاختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه ، وأخذ دماغه في التحلل.

وفي هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص ، وإن كان بعض الأعضاء لا يزال يعمل آليا بفعل الأجهزة المركبة .

وقد وافق المجمع الفقهي لرابطة العالم الاسلامي في دورته العاشرة المنعقدة بمكة المكرمة عام 1408هـ على رفع أجهزة الانعاش وإيقافها متى تبين بالفحوصات الطبية المؤكدة من قبل المختصين بأن هذا الشخص قد مات دماغيا . وفتوى هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية برقم (6619)التاريخ 1404/2/15هـ بشأن إيقاف أجهزة الانعاش ، وهي أول فتوى رسمية تبيح إيقاف أجهزة الانعاش متى تبين موت الدماغ ، وأن التنفس إنما يتم بواسطة الأجهزة .

وبهذه الفتاوى ظهر عهد جديد في ميدان الطب وهو تعريف موت الدماغ طبيا وبداية قبول هذا المفعول شرعيا ومن ثم انفتح باب زراعة الأعضاء من المتوفين دماغيا و أمكن إنقاذ مئات المرضى الذين يعانون من فشل نهائي لأعضائهم الحيوية الهامة ، وبالتالي تم إنقاذهم – بإذن الله تعالى وبفضل التقدم الطبي – من موت محقق .

ملحق رقم 1

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء

فتوى رقم 6619 تاريخ 1404/2/15هـ

بشأن إيقاف أجهزة الإنعاش

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله و آله وصحبه وبعد :

فقد إطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على السؤالين المقدمين من نزار بن محمد فتيح إلى سماحة الرئيس العام والمحالين إليها برقم 31 في 1404/6هـ ، وأجابت عنهما فيما يلي :

س1 : إن هناك حالات من الوفاة يكتنف مسبباتها الغموض العلمي ، ويحتاج الطبيب إلى معرفة السبب المؤثر ، الأمر الذي يستلزم أخذ عينة (الحصول) بواسطة إبرة رفيعة من جسم المتوفى .

والسؤال : ما مدى إمكانية ذلك من الناحية الشرعية علما بأن حجم هذه الإبرة يقارب حجم الإبرة العادية ولا تسبب أي تشققات أو تشوهات في جسم المتوفى .

ج1 – إذا كان هناك ضرورة أو حاجة إلى معرفة السبب الوفاة ولم يمكن معرفة سببها إلا بأخذ العينة على الصفة المذكورة ، جاز ذلك شرعا ، إيثارا للمصلحة الراجحة على ما يصيب المتوفى من الأذى .

س2 : في الحالات التي تستلزم حالة المريض أو المصاب وضعه تحت أجهزة تعمل على تشغيل القلب والتنفس في آن واحد ميكانيكيا ، فإذا ثبت من تخطيط مخ المريض الذي يعمل بشكل دوري خلال (24)ساعة إنه في حالة افقية – مسطح – فإن ذلك يفيد أن المخ توقف تمام ،وأنه لا يعمل طيلة هذه المدة ، الأمر الذي يفيد من وجهة النظر الطبية وفاة المريض .

هل يجوز في هذه الحالة إيقاف الأجهزة التي تقوم بتشغيل القلب والتنفس أتوماتيكيا ، ويهمنا أن نذكر أن الوفاة لن تعلن إلا بعد التأكد من أن القلب قد توقف بعد رفع هذه الأجهزة ، وظهور العلامات المتعارف عليها شرعا .

ج2 :إذا كان الواقع كما ذكر ، جاز إيقاف الأجهزة التي تشغل القلب وأجهزة التنفس أتوماتيكيا إذا كان القلب لا ينبض لوحده ، والتنفس لا وجود له إلا بالأجهزة ، لأنه على هذا يكون ميتا ، وحركة القلب والتنفس إنما ما هي بالأجهزة لا حياة الشخص ، لكن يجب التأكد من موته بعد رفع الأجهزة ، وقبل إعلان الموت لكمال أوجهها .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

ملحق رقم 2

قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه .

القرار رقم (5) د86/7/3

بشأن(أجهزة الإنعاش)

أن مجلس المجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمرة الثالث بعمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية من 8 إلى 13 صفر 1407هـ الموافق 11 إلى 16 أكتوبر 1986م

بعد تداوله في سائر الن واحي التي أثيرت حول موضوع (أجهزة الإنعاش) واستماعه إلى شرح مستفيض من الأطباء المختصين .

قرر ما يلي :

يعتبر شرعا أن الشخص قد مات وتترتب عليه جميع الأحكام المقررة شرعا للوفاة عن ذلك ،اذا تبينت فيه إحدى العلامتين التاليتين :

1 - اذا توقف قلبه وتنفسه توقفا تاما ، وحكم الأطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه .

2 - إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلا نهائيا ، وحكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه ، وأخذ دماغه في التحلل .

وفي هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص ، وأن كان بعض الأعضاء كالقلب مثلا لا يزال يعمل آليا بفعل الأجهزة المركبة .

والله أعلم

ملحق رقم 3

القرار الأول

بشأن موضوع تشريح جثث الموتى

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم .

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي ، لرابطة العالم الإسلامي ، في دورته العاشرة المنعقدة في مكة المكرمة ، في فترة من يوم السبت 24 صفر 1408 هـ الموافق 21 أكتوبر 1987م قد نظر في موضوع (تشريح جثث الموتى) هو بعد مناقشته وتداول الرأي فيه ، إصدار القرار الآتي :

بناء على الضرورات التي دعت إلى تشريح جثث الموتى ، التي يصير بها التشريح مصلحة تربو على مفسده انتهاك كرامة الإنسان الميت .

قرر مجلس المجمع الفقهي التابع لرابط العالم الإسلامي ما يأتي :

الأول : يجوز تشريح لأحد الأغراض الآتية :

(أ) التحقيق في دعوى جنائية لمعرفة أسباب الموت أو الجريمة المرتكبة ، وذلك عندما تشكل على القاضي معرفة أسباب الوفاة ، ويتبين أن التشريح هو السبيل لمعرفة هذه الأسباب .

(ب) التحقق من الأمراض التي تستدعي التشريح ، لتتخذ على ضوئه الاحتياطات الواقية ، والعلاجات المناسبة لتلك الأمراض .

(ج)تعليم الطب وتعلمه ، كما هو الحال في كليات الطب .

ثانيا : في التشريح لغرض التعليم تراعى القيود التالية :

(أ) إذا كانت الجثة لشخص معلوم ، يشترط أن يكون قد أذن هو قبل موته بتشريح جثته ، أو أن يأذن بذلك ورثته بعد موته ، ولا ينبغي تشريح جثة – معصوم الدم إلا عند الضرورة .

(ب) يجب أن يقتصر في التشريح على قدر الضرورة

(ج)جثث النساء لا يجوز أن يتولى تشريحها غير الطبيبات ، إلا إذا لم يوجدن .

ثالثا : يجب في جميع الأحوال دفن جميع أجزاء الجثة المشرحة .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، والحمد لله رب العالمين .

ملحق رقم 4

القرار الثاني

بشأن موضوع تقرير حصول الوفاة

ورفع أجهزة الإنعاش عن جسم الإنسان

الحمد لله لوحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي ، في دورته العاشرة ، المنعقدة بمكة المكرمة في فترة من يوم السبت 24 صفر 1408 هـ الموافق 17 أكتوبر 1987م إلى يوم الأربعاء الموافق 28 صفر 1408 هـ الموافق 21 أكتوبر 1987م قد نظر في موضوع تقرير حصول الوفاة بالعلامات الطبية القاطعة ، وفي جواز رفع أجهزة الإنعاش عن مريض الموضوعة عليه ، في حالة العناية المركزة
واستعرض المجلس الآراء ، والبيانات الطبية المقدمة شفهيا وخطيا ، من وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية ، ومن الأطباء الاختصاصين .

واطلع المجلس كذلك ، على قرار مجمع الفقه الإسلامي ، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، المنعقد في مدينة عمان العاصمة الأردنية رقم (5) 1986/7/3م .

وبعد المداولة في هذا الموضوع ، من جميع جوانبه وملابساته ، انتهى المجلس إلى القرار التالي :

المريض الذي ركبت على جسمه أجهزة الإنعاش ، يجوز رفعها ، إذا تعطلت جميع وظائف الدماغ تعطيلا نهائيا ، وقررت لجنة من ثلاثة أطباء اختصاصين خبراء ، أن التعطل لا رجعة فيه وإن كان القلب والتنفس لا يزالان يعملان آليا ، يفعل الأجهزة المركبة . لكن لا يحكم بموته شرعا الا اذا توقف التنفس والقلب توقفا تاما بعد رفع هذه الأجهزة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، والحمد لله رب العالمين .

ملحق رقم 5

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية

فتوى رقم (12086) وتاريخ 1409/6/30هـ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ...

وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على ما ورد إلى سماحة ال رئيس العام من مدير فرع الشؤون الدينية بالمنطقة الشم الية الغربية ، عن طريق مدير إدارة الشؤون الدينية للقوات المسلحة إلى اللجنة من إدارة البحوث العلمية والإفتاء برقم (1508) وتاريخ 1409/3/28هـ . وقد سألا سؤالا هذا نصه : ((ورد إلينا شرح ضابط التوعية الإسلامية بمستشفى القوات المسلحة بالمنطقة الشمالية الغربية بتاريخ 13/ 3/ 1409هـ . المبني على خطاب رئيس الاطباء بمستشفى القوات المسلحة بالمنطقة الشمالية الغربية المؤخرة في 1409/3/12 هـ . والذي يطلب فيه فتوى حول عدم تنفيذ اجراءات الانعاش في النقاط التي ورد ذكرها في دليل سياسة العمل والاجراءات المرفقة ، نأمل من فضيلتكم التكرم باتخاذ ما ترونه ، او فتوى بجواز هذه النقاط من عدمها ، واشعارنا ، ليتم على ضوء ذلك العمل بموجبه في مستشفى القوات المسلحة بالمناطق الشمالية الغربية هذا والله يحفظكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... " .

هذا والحالات التي وردت في دليل سياسة العمل والاجراءات هي التالية :

أولا – إذا وصل المريض متوفى

ثانيا – اذا كان ملف المريض مختوما بعلامة عدم اجراءات الانعاش ، بناء على رفض المريض أو وكيله في حال عدم صلاحية المريض للانعاش .

ثالثا – اذا قرر ثلاثة اطباء ان من غير المناسب انعاش المريض ، عندما يكون من الواضح انه يعاني من مرض مستعصي غير قابل للعلاج ، وان الموت محقق .

رابعا – اذا كان المريض في حالة عجز اكيد عقليا أو جسميا أو كليهما ، وفي حالة خمول ذهني مع مرض مزمن ،مثل السكتة الدماغية المسببة للعجز ، أو مرض السرطان في مرحلة متقدمة ، أو مرض القلب والرئتين المزمن الشديد ، أو أمراض الهزال، وتكرار توقف القلب والرئتين .

خامسا – إذا وجد لدى المريض دليل على الإصابة بتلف في الدماغ مستعصى على العلاج ، عقب تعرضه لتوقف القلب والرئتين لأول مرة .

سادسا – إذا كان إنعاش القلب والرئتين غير مجد ، وغير ملائم لوضع معين ، حسب رأي الأطباء الحاضرين ، فإن رأي المريض الذاتي لا يهم ، والأطباء غير ملزمين بإجراء إنعاش القلب والرئتين ، ولا يحق لذّوي المريض طلب هذا النوع من العلاج إذا كان غير مجد .

وبعد دراسة اللجنة أجابت بما يلي :

أولا : إذا وصل المريض إلى المستشفى وهو متوفى فلا حاجة لاستعمال جهاز الإنعاش .

ثانيا : إذا كانت حالة المريض غير صالحة للإنعاش بتقرير ثلاثة من الأطباء المتخصصين الثقات ، فلا حاجة أيضا لاستعمال جهاز الإنعاش .

ثالثا : إذا كان مرض المريض مستعصيا غير قابل للعلاج ، وإن الموت محقق بشهادة ثلاثة من الأطباء المختصين الثقات فلا حاجة لاستعمال جهاز الإنعاش .

رابعا : إذا كان المريض في حالة عجز أو في حالة خمول ذهني مع مرض مزمن ، أو مرض السرطان في مرحلة متقدمة ، أو مرض القلب أو الرئتين المزمن ، مع تكرار توقف القلب والرئتين ، وقرر ثلاثة من الأطباء الثقات ذلك ، فلا حاجة لاستعمال جهاز الإنعاش .

خامسا : إذا وجد لدى المريض دليل على الإصابة بتلف من الدماغ مستعص على العلاج ، بتقرير ثلاثة من الأطباء المختصين الثقات ، فلا حاجة أيضا لاستعمال جهاز الإنعاش لعدم الفائدة في ذلك .

سادسا : إذا كان إنعاش القلب والرئتين غير مجد ، وغير ملائم بوضع معين ، حسب رأي ثلاثة من الأطباء المختصين الثقات ، فلا حاجة لاستعمال آلات الإنعاش ، ولا يلتفت إلى رأي أولياء المريض في وضع آلات الإنعاش ، أو رفعها ، لكون ذلك ليس من اختصاصهم.

وبالله التوفيق .. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

اللجنة الدائمة

عضو — نائب رئيس اللجنة

عبد الله بن عبد الرحمن الغديان — عبد الرزاق عفيفي

الرئيس

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الفهرس

الفصل الأول : متى تبدأ الحياة الانسانية الدنيوية 1
الفصل الثاني : معاني القلب 8
الفصل الثالث : معاني الصدر 13
الفصل الرابع : معاني الروح 16
- لفظ الروح في القرآن الكريم 16
- حقيقة الروح التي بها حياة البدن 18
- كلام ابن سينا في القلب والروح 21
- كلام ابن النفيس في القلب والروح 22
الفصل الخامس : معاني النفس 27
- النفس في القرآن الكريم 30
- النفس وصفاتها 30
- الخلاصة 31
الفصل السادس : متى تنتهي الحياة الانسانية الدنيوية ؟ 33
- تعريف الموت بصورة عامة 33
- تعريف الموت عند المسلمين (التعريف الشرعي للموت) 33
- اخراج الروح 35
- الروح وتأثيرها في البدن 36
- حكم المولود اذا لم يستهل صارخا 37
- مالم تكن حياة مستقرة فلا حياة 38
- تعريف الحياة المستقرة 38
- حركة المذبوح 39
- علامات الموت وتشخيصه عند الفقهاء 42
- علامات الموت 43
- أنواع حركة المذبوح 45
- تعليل الاختلاف في الحكم 45
- مفهوم الموت عند الاطباء 46
- علامات الموت عند الاطباء 48
- موت الدماغ 49
- أسباب موت الدماغ 49
- تشخيص موت الدماغ 50
- ماذا بعد تشخيص موت الدماغ ؟ 51
ملحق (1) فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية
والافتاء بشأن ايقاف اجهزة الانعاش 52

ملحق (2) قرار مجلس مجمع الفقه الاسلامي
بشأن أجهزة الانعاش 53
ملحق (3) القرار الاول بشأن تشريح جثث الموتى 54
ملحق (4) القرار الثاني بشأن موضوع تقرير حصول الوفاة
ورفع اجهزة الانعاش عن جسم الانسان 55
ملحق (5) فتوى رقم (12086) وتاريخ 1409/6/30هـ 56